نشأة النحو وأطواره

والتعريف بأشهر علمائه

الطبعة الأولى
١٤٤٠ هـ - ٢٠١٨ م
جميع الحقوق محفوظة

الكويت - مدينة سعد العبدالله - الدائري السادس - ق3 - م28
Website : www .daradahriah .com
E-mail : daradahriah@gmail .com
(+965) 99627333 - (+965) 51155398 - (+966) 559221028

الموزعون المعتمدون

دار التدمرية للنشر والتوزيع
(الرياض)
tadmoria@hotmail.com
(+966) 4925192

أروقة للدراسات والنشر
(عمّان)
info@arwiqa.net
(+962) 64646163

مكتبة الميمنة المدنية
(المدينة المنورة)
daralmimna@gmail.com
(+966) 558343947

نشأة النحو وأطواره

والتعريف بأشهر علمائه

تأليف

عبد السميع شبانة

الأستاذ في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر

عُني به

عبد الإله بن مونس الدحيلي

دار الظاهرية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحیم

الشيخ عبد السميع شبانة[١]

*** ولادته ودراسته:**

ولد الشيخ عبد السميع شبانة سنة (١٩٠٣م) في بلدة «فرسيس» من محافظة الشرقية، وبعد أن أتم حفظ القرآن الكريم، ألحقه والده بالأزهر الشريف، حتى حصل على الشهادة العالمية، ونال إجازة التخصص القديم التي تعادل درجة الدكتوراه سنة (١٩٣٢م).

*** أعماله ومناصبه:**

عين أستاذا في معهد الزقازيق، فكان يتنقل بين قرى محافظة الشرقية يدعو إلى الله، وفي الوقت نفسه كان أحرص ما يكون على أهل بلدته، فكان يعقد لهم مجالس العلم ويساعد أبناءهم في دراستهم، حتى عرفت قريته «فرسيس» بأنها بلد العلم.

واختارته مشيخة الأزهر للتدريس في كلية اللغة العربية سنة (١٩٣٩م) لمكانته العلمية، فأسهم في تطوير كلية اللغة العربية، وبقي رحمه الله مشرفا على قسم اللغويات بكلية اللغة العربية رافضًا كل المناصب الأخرى إلى آخر حياته.

ولم يكن -رحمه الله- يقف عند حدود تخصصه في النحو أو الصرف، بل جاوز ذلك إلى العلوم الشرعية، فكان حجة فيها، يأتي إليه الناس يستفتونه

(١) مصدر الترجمة -عدا مؤلفاته- كتاب: «الأزهر في ألف عام» للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي والدكتور علي صبح (٥/ ١٩٢-١٩٣)، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الثالثة.

في أمور دينهم فيجيبهم ويرشدهم، وقد صدرت له الكثير من الفتاوى التي كانت تستند عليها المجالس العرفية في حل المنازعات بين الأسر والأفراد.

وكان بيته منتدى يجتمع فيه طلاب العلم لما عرف عنه من الأخلاق العالية والتواضع الجم والتمكن في علوم اللغة والشريعة.

*** مؤلفاته:**

ألف كتبا كثيرة في النحو والصرف، أعيد طبعها مرارا، ومنها:

(١) بحوث لغوية.

(٢) تطبيقات وقواعد في النحو والصرف والبلاغة (بالاشتراك مع عبدالله الشربيني).

(٣) التطبيقات والقواعد في النحو، لطلبة السنة الأولى.

(٤) التطبيقات والقواعد في الصرف لطلاب السنتين الأولى والثانية بكلية اللغة العربية.

(٥) القواعد والتطبيقات في الإبدال والإعلال.

(٦) دراسات تطبيقية في النحو والصرف.

(٧) دراسات في النحو.

(٨) نشأة النحو وأطواره والتعريف بأشهر علمائه.

*** وفاته:**

توفي رحمه الله في (٢١) مايو سنة (١٩٦٨م)، ففقد العالم الإسلامي بموته عالما ورعا.

نَشْأَةُ النَّحْوِ وَأَطْوَارُهُ

وَالتَّعْرِيفُ بِأَشْهَرِ عُلَمَائِهِ

تأليف

عَبْدُ السَّمِيعِ شَبَانَة

الأُسْتَاذُ فِي كُلِّيَّةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ بِجَامِعَةِ الأَزْهَرِ

عُنِيَ بِهِ

عَبْدُ الإِلَهِ بْنُ مُونِسٍ الدَّحِيلِيُّ

دَارُ الظَّاهِرِيَّةِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

عبد السميع محمد أحمد
جامعة الازهر
كلية اللغة العربية

نشأة النحو وأطواره
والتعريف بأشهر علمائه

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٣٨٦ هـ — ١٩٦٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد فهذا عرض موجز لنشأة النحو وأطواره، وتاريخ أشهر علمائه، أقدمه لطلاب كلية اللغة العربية، رجاء أن يكون حافزا لهم على التوسع في البحث، كي يقفوا على مدى ما بذله العلماء السابقون من جهد في استكمال قواعد هذا الفن، والكشف عن أسراره، فيقدروهم حق قدرهم، ويسيروا على ضوئهم.

رزقنا الله الإخلاص في العمل، وجنبنا الخطأ والزلل، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

المؤلف

الباعث على وضع النحو

كان العرب قبل الإسلام يتكلمون بفطرتهم وينطقون بسليقتهم، لا يحتاجون إلى إعمال فكر وروية، لا تتعثر ألسنتهم، ولا يشوب لغتهم شيء من أدران اللغات الأخرى، حتى سطع نور الإسلام، وتتابعت الفتوحات الإسلامية ونزح العرب إلى البلاد التي فتحوها، كما هاجر كثير منها إلى الجزيرة العربية، وكان أثر ذلك أن اختلط العرب بغيرهم، واستمع بعضهم من بعض، وتفاهموا في كل ما يتصل بشؤونهم، واندفعوا إلى محاكاتهم لبعضهم، إن طوعا وإن كرها، فانحرف العرب عن سليقتهم وملكاتهم، وسرى اللحن إلى ألسنتهم.

وكان أول ظهور اللحن في الإعراب وأواخر الكلمات التي تختلف المعاني باختلافها، ثم امتد إلى الصيغ والأبنية.

وإليك أمثلة من النوعين:

قال ياقوت: مر عمر بن الخطاب على قوم يسيئون الرمي، فقرعهم فقالوا: «إنا قوم **متعلمين**»، فأعرض مغضبا، وقال: والله لخطؤكم في لسانكم أشد عليَّ من خطئكم في الرمي!

وقال ابن قتيبة: وسمع أعرابي مؤذنا يقول: «أشهد أن محمدا **رسولَ** الله» بنصب رسول، فقال: ويحك يفعل ماذا ؟!

ودخل أعرابي على عبد العزيز بن مروان، وشكا إليه ختَنه -أي: صهره- فقال عبد العزيز: «ومن **ختنَك**» بفتح النون، فقال: ختنني الختان، فقيل لعبدالعزيز: إنه لم يفهم عنك قولك، قال: فأفهموه، فقالوا له من ختنُك؟ قال:

ختني فلان، فاستحيا عبد العزيز، وألزم نفسه ألا يجلس للناس حتى يعرف من العربية ما يصلح به كلامه ويزيل اللحن عنه.

ودخل أعرابي على هشام بن عبد الملك، فقال له هشام: «كم **عطاءَك؟**» قال: «**ألفين**»، فسكت ساعة ثم قال: كم عطاؤك؟ قال: ألفان، قال: لم لحنتَ أولا؟ قال: لم أشْتَهِ أن أكون فارسا وأمير المؤمنين راجل، لحنتَ فلحنتُ ونحوتَ فنحوتُ، فاستحسن أدبه وأجازه.

وجاء رجل إلى زياد فقال: «**إن أبينا** هلك، وإن **أخينا** غصبنا ميراثنا من **أبانا**»، فقال له زياد: ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضيعت من ميراثك، فلا رحم الله أباك حيث ترك ولدا مثلك.

وقال بشر بن مروان -وعنده عمر بن عبد العزيز- لغلام له: ادع لي صالحا، فقال الغلام: «**يا صالحا**»، فقال بشر: «ألق منها **ألِف**»، فقال له عمر: وأنت فزد في ألِفك ألِفا.

وطلب أعرابي في عهد عمر بن الخطاب أن يقرئه قارئ شيئا من القرآن، فأقرأه رجل سورة براءة وقال: «أن الله برئ من المشركين **ورسولِه**» بجر رسوله، فقال الأعرابي: أو قد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله قد برئ من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغ عمرَ مقالة الأعرابي فدعاه وقال: ليس هكذا يا أعرابي، فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾، فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ ممن برئ الله ورسوله منهم، فأمر عمرُ ألا يقرئ القرآن إلا عالمٌ باللغة، ورُوي أنه أمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع النحو.

وجاء رجل إلى زياد، فقال: «أصلح الله الأمير، توفي **أبانا** وترك **بنونا**»، فقال زياد: «توفي **أبانا** وترك **بنونا؟!**»، ادع لي أبا الأسود، فقال له: ضع للناس

ما كنت نهيتك عنه[١]، ففعل.

ومن أمثلة اللحْن في الصيغ والأبنية ما رُوي أن أبا عمرو بن العلاء سمع رجلا ينشد قول المرقش الأصغر:

ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره ومن **يغوَ** لا يعدم على الغي لائما

فقال له: أُقَوِّمُكَ أم أترُكُكَ تتسكع في طُمتك؟، فقال: بل قومني، فقال: قل: ومن يغوِ، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

وما رُوي من أن رجلين اختصما إلى عمر بن عبد العزيز، فجعلا يلحنان، فقال الحاجب: «**قُما**، فقد آذيتما أمير المؤمنين»، فقال عمر: أنت والله أشد إيذاء لي منهما.

ومن ذلك قول عدي بن زيد:

ويلومون فيك يـــا ابنة عبد الله والقلـــب عندكـــم **موثوق**

والصواب: مُوثَق، إذ الفعل أوثق، ولذا أنكره الأصمعي.

وما ذكرت لك قليل من كثير، ومنه يتبين لك أن جرثومة اللحن انتشرت بين الخاصة والعامة حتى وصلت إلى المقرئين، وأصابت الحاضرة والبادية.

يقول الجاحظ: أول لحن سمع بالبادية: «هذه **عصاتي**»، والصواب: عصاي.

لذا فزع الغيرُ على اللغة والدين، وخافوا أن تفسد الملكة ويطول العهد فيستعصي فهم القرآن والحديث، فوضعوا أصولا وقواعد كلية، استنبطوها من

(١) وكان أبو الأسود قد دخل قبل على زياد وهو أمير البصرة، فقال: إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم وفسدت ألسنتها، أفتأذن لي أن أضع للعرب ما يعرفون به كلامهم؟ فقال له زياد: لا تفعل.

كلام العرب، للقياس عليها والسير على ضوئها.

قال ابن خلدون: فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين، والسمع أبو الملكات اللسانية، ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها، لجنوحها إليه باعتياد السمع، وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد الملكة رأسا ويطول العهد فينغلق القرآن والحديث على الفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه بالأشباه.

*** هل كان اللحن معروفا في صدر الإسلام؟ - متى وضع النحو؟**

لقد كان اللحن معروفا في صدر الإسلام، كما يرشد إليه قوله ﷺ: «أنا من قريش ونشأت في بني سعد فأنَّي لي اللحن!»، وقول أبي بكر رضي الله عنه: لأن أقرأ فأسقِط أحب إليَّ من أن أقرأ فألحن.

وظهر اللحن في كلام الموالي والمستعربين من عهد النبي ﷺ، روي أن رجلا لحن بحضرة النبي ﷺ فقال: «أرشدوا أخاكم، فإنه ضل»، وكتب كاتب لأبي موسى الأشعري: إلى عمر «من **أبو** موسى»، فكتب إليه عمر: سلام عليك، أما بعد فاضرب كاتبك سوطا واحداً، وأخر عطاءه سنة.

ومع حدوث اللحن في صدر الإسلام كان نادر الوقوع، لا يُخشى منه على اللغة أن تفسد، ولا يحفز النفوسَ إلى دفع خطره، لذا لم يفكر في وضع النحو في ابتداء ظهور الإسلام، وإنما نشأ التفكير فيه حينما طغى سيل اللحن وانتشرت جراثيمه بعد الفتح الإسلامي واختلاط العرب بغيرهم.

ولقد كان نصيب العراق (البصرة والكوفة) من هذا الاختلاط أوفر من

نصيب غيرها، لأنها كانت موطن العجم قبل الفتح، وبعد الفتح أقبل المسلمون عليها عربا وعجما، لما امتازت به من توافر أسباب الحياة الناعمة ورغد العيش، لذا كانت أكثر البلاد إصابة بوباء اللحن وتعرضا لأرزائه، مما دفع أولي العلم والمعرفة إلى العمل على وقف تياره ودرء خطره بوضع قواعد النحو.

وساعدهم على ذلك أن العراقيين ذوو عهد قديم بالعلوم والتأليف، ولهم فيهما خبرة متوارثة، فلا غرو أن يكون وضع النحو ونموه بالعراق (البصرة والكوفة): بالبصرة كان غرسه وظهوره، وبها وبالكوفة كان نموه وازدهاره.

واضع النحو

اختلف المؤرخون قديما وحديثا في واضعه، واضطربت في ذلك الروايات، والذي رجحه الأنباري أن واضعه هو الإمام علي، إذ يقول: إن أول من وضع علم العربية وأسس قواعده وحد حدوده هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

ثم ذكر أنه دفع إلى أبي الأسود رقعة كتب فيها: الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبئ به، والحرف ما أفاد معنى، وقال له: انحُ هذا النحو وأضف إليه ما وقع إليك.

ثم وضع أبو الأسود بابَي العطف والنعت، ثم بابي التعجب والاستفهام إلى أن وصل إلى باب إنَّ وأخواتها ماعدا لكنَّ، فلما عرضها على الإمام علي أمره بضم لكنَّ إليها، وكلما وضع بابا من أبواب النحو عرضه على الإمام علي إلى أن حصل ما فيه الكفاية، فقال: ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوت!!

ولم يطمئنَّ كثير من المحققين إلى ما رواه الأنباري، لأنَّ التقاسيم والتعاريف التي نسبها إلى الإمام علي اصطلاحات فلسفية لا تتفق مع عصر الإمام علي وأبي الأسود وبيئتهما، وعلى فرض صحة هذه الرواية لا تقتضي أحقية الإمام بنسبة الوضع إليه لأنَّ الدور الذي قام به أبو الأسود أهم مما قام به، إذ هو الذي قام بوضع بعض الأبواب الأساسية.

لذا رَجَّحَ جمهور المؤرخين -متقدميهم ومتأخريهم- نسبة الوضع إلى أبي الأسود، وإن اختلفوا أكان ذلك بإشارة من الإمام علي أو من عمر رضي

الله عنه أو من زياد كما تقدم، أم كان ذلك بباعث من نفسه حينما أخطأت ابنته أمامه إذ قالت له يوما: ما أحسنُ السماءِ؟ فقال لها: نجومُها، فقالت له: إني لم أرد هذا، وإنما تعجبت من حسنها، فقال لها إذن فقولي: ما أحسنَ السماءَ، فوضع النحو حينئذ.

ومن العلماء من نسب الوضع إلى نصر بن عاصم الليثي، ومنهم من نسبه إلى عبد الرحمن بن هرمز.

وذهب الأستاذ أحمد أمين إلى أن واضع النحو هو الخليل بن أحمد، ويرى أن ما استُفِيضَ واشتهر بين العلماء من نسبة الوضع إلى أبي الأسود منشؤه أنَّ أبا الأسود هو الذي ابتكر شكل المصحف باتفاق المؤرخين، روي أنه كان يأخذ صبغا مخالفا للون المداد الذي كتب به المصحف ويضع على الحرف المفتوح نقطة فوقه، وعلى المكسور نقطة أسفله، وعلى المضموم نقطة قبله، وعلى المنون نقطتين، ويترك الساكن، وهكذا.

ويرى أنَّ ما قام به أبو الاسود من ابتكار شكل المصحف خطوة أولية هدَت إلى النحو، وفتحت الباب إلى التفكير في الإعراب ووضع القواعد له، ولما توسع العلماء فيها بعدُ وسموا كلامهم نحوا سحبوا اسم النحو على ما كان قيل من أبي الأسود، للشبه في الأساس بين ما صنع وما صنعوا، وإنما الذي له الفضل في وضع النحو الذي نعرفه إلى اليوم هو الخليل بن أحمد.

هذه آراء العلماء في وضع النحو، ويمكن التوفيق بأنَّ أبا الأسود هو واضع اللبنات الأولى في هذا البناء بإرشاد الإمام علي وتوجيهه، لأنَّه وضع الأبواب إجمالا بجانب ما قام به من شكل المصحف، ثم أخذ العلماء يبتدعون ويزيدون حتى نما وترعرع.

فلأبي الأسود فضل بدء الغرس ووضع الأساس، وللإمام علي فضل التوجيه والإرشاد، ولمن جاء بعد أبي الأسود فضل تعهد الغرس الذي نما وترعرع، وإكمال البناء الذي صار صرحا شامخا وطيد الأركان.

*** أول ما وضِعَ من أبواب النحو:**

يرى جمهور المؤرخين أنَّ أول ما وضع من قواعد النحو هو ما وقع فيه اللحن، وفريق يرى أنَّ أول ما وضع هو ما كان أقرب إلى متناول الفكر في الاستنباط، وهو ما يكثر دورانه على اللسان، ولذا يقولون: إن الموضوع أولا هو الفاعل، ثم المفعول، ثم المبتدأ والخبر، والرأي الأول أرجح، لأنه الذي تؤيده الروايات الصحيحة.

كيف نشأ النحو؟ مراحله وأطواره

سار النحو في نشأته ومراحله طبقا لنواميس النشوء والارتقاء، فقد بدأ -ككل كائن حي- صغيرا، إذ لم يوضع منه أول الأمر سوى مباحث مجملة وقضايا أولية، غير أنه أخذ يسير نحو الكمال بخطًى واسعة، وذلك لشعور العلماء بالحاجة إليه دفعا لخطر وباء اللحن الذي كاد أن يُفسدَ ملكتهم ويقضي على لغتهم.

ولقد كان لعلماء البصرة الفضل الأكبر والنصيب الأوفى في وضعه ودراسته، إذ كان يستوطنها أبو الأسود الدؤلي وكثير من الموالي الذين مرنوا على مزاولة العلوم والفنون، وكان بهم شغف وميل إلى النحو، واشتدت حاجتهم إلى تعلم هذا العلم ليتعرفوا لغة دينهم وإخوانهم، حتى يتم الاندماج بهم وتتكامل وحدتهم، لذا شدوا عضد أبي الأسود وكانوا له خير معين.

وظلت البصرة منفردة بالبحث في هذا العلم زهاء قرن بينما كان أهل الكوفة منصرفين إلى رواية الأشعار وطرائف الأخبار، ثم اشترك علماء البلدين (البصرة والكوفة) في النهوض به من عهد الخليل بن أحمد شيخ الطبقة الثانية من البصريين، وأبي جعفر الرؤاسي شيخ الطبقة الأولى من الكوفيين.

وأخذ علماء المصرين طبقة بعد طبقة يتنافسون على الظفر بشرف استكمال قواعده، حتى تمت أصوله وكملت عناصره في مستهل العصر العباسي، على يد المبرد خاتم البصريين، وثعلب خاتم الكوفيين، وأخذ يدرس دراسة وافية في البصرة والكوفة.

ثم بلغ الغاية وأوفى على الكمال في بغداد، إذ نشأ فيها المذهب البغدادي قبل تمام القرن الثالث الهجري، وكانت غايته الترجيح بين المذهبين: البصري والكوفي، ثم شع نور هذا العلم في سائر البلاد الإسلامية، وفي مقدمتها مصر والشام والأندلس.

ونستطيع أن نعتبر المراحل والأدوار التي مرت بها دراسة النحو أربعة، وإليك بيانها:

الدور الأول: دور الوضع والتكوين

*** طبقاته:**

يبدأ هذا الدور من عصر أبي الأسود المتوفى سنة (٦٩هـ) إلى عهد الخليل بن أحمد المتوفى سنة (١٧٥هـ) وهذا الدور بصري، لأن علماء البصرة -كما تقدم لك- هم الذين كان لهم الفضل في وضعه ورعايته، ولقد اشتغل فيه بدراسة النحو طبقتان.

*** من أعلام الطبقة الأولى:**

من علماء الطبقة الأولى بعد أبي الأسود: نصر بن عاصم الليثي المتوفى سنة (٨٩هـ)، وعبد الرحمن بن هرمز المتوفى سنة (١١٧هـ)، ويحيى بن يعمر العدواني المتوفى سنة (١٢٩هـ)[1].

*** أثر هذه الطبقة:**

الظاهر أنَّ عمل هذه الطبقة كان بسطا ونشرا لما وضعه أبو الأسود مقصورا على رواية المسموع، فلم تثبت لديهم فكرة القياس، ولم يؤثر عنهم سوى مسائل في مواطن مختلفة لم تبلغ حد الكتب المنظمة.

---

(١) كان فصيحا لبقا، قال له الحجاج الثقفي يوما: أتسمعني ألحن؟ قال: في حرف واحد قال: في أي؟ قال: في القرآن، قال: ذلك أشنع، ثم قال: ما هو؟ قال: تقول: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ فتقرأ أحب بالرفع، فقال الحجاج: لا جرم لا تسمع لي لحنا بعد اليوم، ثم ألحقه بخراسان، فولاه يزيد بن المهلب القضاء بها.

ولقد قام نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر بضبط المصحف بالنقط في عهد عبد الملك بن مروان، بعد أن ضبطه أبو الأسود بالشكل.

*** أعلام الطبقة الثانية:**

منهم عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي المتوفى سنة (١١٧هـ)، وقد أخذ عن نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر، سئل عنه يونس فقال: هو والنحو سواء، وهو أول من علَّل النحو وفرَّعه وقاسه، وكان يخطئ الفرزدق كثيرا حتى هجاه، ومما خطأه فيه قوله يمدح عبد الله بن مروان:

إليك أمير المؤمنـــين رمت بنا هموم المنى والهوجل المتعَسِّـــفُ

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلّف[1]

فهجاه الفرزدق بقوله:

فلو كان عبـــد الله مولى هجوته ولكنَّ عبد الله مـــولى مواليا

فقال عبد الله: عذره شر من ذنبه، فقد أخطأ أيضاً، والصواب: مولى موال.

ومنهم عيسى بن عمر الثقفي المتوفى سنة (١٤٩هـ)، أخذ عن أبي إسحاق، وكان مولعا بالغريب، أَلَّفَ كتابين في النحو هما: الجامع، والإكمال.

ومنهم أبو عمرو بن العلاء، واسمه زبَّان بن العلاء بن عمار التميمي المازني، أخذ النحو عن نصر بن عاصم وغيره، ألف في القراءات والعربية وأيام العرب ولهجات القبائل ولكنَّه أحرق مؤلفاته بعد تنسكه وتفرده للعبادة،

(١) عض الزمان: شدته، المسحت: المُستَأصَل الذي لم يبق منه بقية، المجلّف: الباقي منه بقية، وقد خرج العلماء رفع مجلف على جعله معطوفا على مسحتا بملاحظة المعنى، لأنه في معنى لم يبق إلا مسحت أو بقي مسحت، وبعضهم جعل التقدير: أو هو مجلف، وروي: لم يدِع إلا مسحت، برفع مسحت وكسر الدال من الدعة والسكون، ولا إشكال على هذه الرواية.

وتوفي سنة (١٥٤هـ).

*** أثر الطبقة ومنهجها:**

لقد تتبعت هذه الطبقة النصوص واستنبطت كثيرا من العلل والأسباب، واستعملت القياس، وبذا وفقت إلى وضع كثير من أصول النحو ومسائله.

غير أن مباحثهم كانت منصرفة إلى أواخر الكلمات، دون الأبنية والصيغ، وذلك لقلة الأخطاء فيها، ولأن الخطأ فيها لا يضيع الغرض المقصود للمتكلم، بخلاف الخطأ في أواخر الكلمات، فإنه تضيع معه الإفادة والاستفادة المقصودتان له.

وقد وُضِعَتْ في هذا الدور مؤلفات، غير أن مسائل النحو فيها كانت ممتزجة بمسائل اللغة والأدب، وغير ذلك من فروع اللغة العربية، كما يرشد إلى ذلك ما يُروى عنهم في محاوراتهم.

وعن علماء هذه الطبقة تلقى علم النحو مؤسسو مدرسة الكوفة، فقد رحل إلى البصرة أبو جعفر الرؤاسي أستاذ أهل الكوفة، وأخذ عن عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء، ثم انتقل إلى الكوفة ونشر فيها النحو، كما تلقى الكسائي وهو المؤسس الحقيقي لمدرسة الكوفة عن الخليل بن أحمد ويونس ابن حبيب.

الدور الثاني: دور النمو

في هذا الدور اشترك نحاة البصرة والكوفة في النهوض بهذا الفن، ويبدأ من عهد الخليل بن أحمد إمام الطبقة الثالثة من البصريين، وأبي جعفر الرؤاسي شيخ الطبقة الأولى من الكوفيين، فهذا الدور «بصري كوفي».

تلاقت فيه ثلاث طبقات من نحاة كل من البصرة والكوفة، وقد علمتَ أن البصرة سبقت الكوفة بطبقتين، ومن ذلك يتبينُ لك أن الطبقات الثالثة والرابعة والخامسة من نحاة البصرة يقابلها الطبقات الأولى والثانية والثالثة من نحاة الكوفة.

*** أثر هذا الدور ومنهجه في البحث:**

(١) نشط رجال هذا الدور في البحث والاستقراء وإعمال الفكر واستخراج القواعد، دعا إلى ذلك التنافسُ بين علماء المصرين، وحِرْصُ كل فريق منهما على الظفر بشرف استكمال هذا العلم وإحراز قصب السبق فيه.

(٢) لم يقتصر البحث في هذا الدور على مراعاة أحوال أواخر الكلمة كما كان الشأن في الدور الأول، بل اتجه البحث إلى مراعاة الأبنية أيضا، فاسم النحو كان يعم الأمرين، ومباحث الصرف كانت مندمجة مع مباحث النحو في كتبهم ومؤلفاتهم، ولذا كان النحو يعرف بأنه: علم يعرف به أحوال الكلم العربية إفرادا وتركيبا، وما زال الشأن هكذا في كتب بعض المتأخرين.

(٣) في هذا الدور سُلك بمباحث النحو سبيل الاستقلال، والبعد عن المباحث التي لا تتصل به اتصالا وثيقا، فقد أفردت مباحثه بمؤلفات خلت من

مباحث اللغة والأدب والأخبار، وإن ظل بعض المؤلفات مزيجا من مسائل النحو وغيرها، كما في كتاب العين للخليل بن أحمد، فإنه ضم إلى دراسة اللغة قدرا كبيرا من مسائل النحو.

(٤) تباينت مناهج البحث والاستقراء بين البصريين والكوفيين واختلفت نزعاتهم، وسلك كلٌّ مسلكا خاصا في وضع القواعد وتعليلها، وصار لكل من المصرين مذهب خاص ومدرسة منفصلة عن الأخرى متميزة بمناهجها وأساليب البحث فيها.

(٥) ومن هنا اشتدت المنافسة بين علماء البلدين، وتأججت نار العصبية وحرصت كل طائفة على أن تتغلب على الأخرى، وبذا قطع النحو شوطا كبيرا حتى شارف على الكمال وكثرت فيه المؤلفات من نحاة القطرين.

(٦) اتجه الكوفيون إلى دراسة الصرف والعناية بمسائله حتى بزوا بذلك البصريين وسبقوهم إلى استنباط كثير من قواعده، حتى اعتبرهم المؤرخون الواضعين الحقيقيين للصرف، فقد كانت مباحث الصرف عند البصريين في المرتبة الثانية، بل لم يبحث عنها في الدور الأول كما تقدم، وإنما اتجه البحث إليها في هذا الدور على يد الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب، وكان يعاصرهما في الكوفة أبو جعفر الرؤاسي فإنه بعد أن تلقى هذا العلم عن علماء البصرة رجع إلى الكوفة واشتغل فيها بالنحو مع عمه معاذ بن مسلم الهراء، ووجده كلفا بالبحث عن الأبنية والتمارين فجاراه في ذلك إلى أن غلبت عليهما الناحية الصرفية.

(٧) نشطت حركة التأليف في ذلك الدور وأشهر ما ظهر في البصرة كتاب العين للخليل والكتاب لسيبويه، والمقاييس والأوسط للأخفش، وأول مؤلف

ظهر في الكوفة في ذلك الدور كتاب الفيصل للرؤاسي، وألف بعده الكسائي كتاب المصادر، وألف الفراء كتاب فعل وأفعل

*** أشهر نحاة هذا الدور وطبقاته:**

(أ) الطبقة الثالثة في البصرة، أشهر علمائها:

١- الأخفش الأكبر: أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد أول الأخافشة الثلاثة المشهورين توفي سنة (١٧٧هـ).

٢- الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي، المتوفى سنة (١٧٥هـ)، ولد بالبصرة وشب محبا للعلم، تلقى عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفي وغيرهما، وشافه الأعراب في الحجاز ونجد وتهامة، له فضل النهوض بالنحو كما لأبي الأسود فضل تكوينه، يقول الزبيدي فيه: هو الذي بسط النحو ومد أطنابه وسبب علله وفتق معانيه وأوضح الحجاج فيه حتى بلغ أقصى حدوده، ثم لم يرض أن يؤلف فيه حرفا أو يرسم فيه رسما واكتفى في ذلك بما أوحى إلى سيبويه من علمه ولقنه من دقائق نظره ونتائج فكره، وهو واضع علم العروض والقافية وفن النغم والموسيقى العربية وأول من دَوَّنَ معجما في اللغة، من تأليفه كتاب العين، وله مؤلفات أخرى منها كتاب الشواهد وكتاب النقط والشكل، عاش فقيرا زاهدا لا يبالي بالدنيا، من كلامه قوله:

الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ولا يزيدك فيه حَـــوْل محتال

والفقر في النفس لا في المال تعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس والمال

٣- أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبي المتوفى سنة (١٨٢هـ) أخذ عن أبي عمرو وغيره، وواجه العرب وسمع منهم، وكانت له حلقة دراسية في المسجد الجامع بالبصرة، وله في النحو مذاهب خاصة، نُقِلَ عنه أنه يجيز

إعمال ما الحجازية مع انتقاض نفيها بإلا، قضى حياته أعزب لم يتزوج.

- ما يقابل هذه الطبقة في الكوفة:

يقابلها في الكوفة الطبقة الأولى، وأشهر رجالها:

١- أبو جعفر محمد بن الحسن الرؤاسي المتوفى سنة (١٨٧هـ)، لقب بالرؤاسي لكبر رأسه، نشأ بالكوفة وورد البصرة فتلقى العلم عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر وغيرهما من رجال الطبقة الثانية، ثم رجع إلى الكوفة واشتغل فيها بالنحو مع عمه معاذ بن مسلم الهراء وغيره، وهو رأس الطبقة الأولى بالكوفة، ألف كتابه الفيصل في النحو، توفي بالكوفة في عهد الرشيد ولم تُعلَم السنة التي توفي فيها.

٢- معاذ الهراء: وهو أبو مسلم لقب بالهراء لبيعه الثياب الهروية، اشتغل مع ابن أخيه الرؤاسي بالنحو غير أنه كان مولعا بالأبنية والتمارين حتى عده المؤرخون واضع الصرف، عُمِّرَ طويلا وتوفي عام نكبة البرامكة سنة (١٨٧هـ).

(ب) الطبقة الرابعة في البصرة وما يقابلها في الكوفة:

أشهر رجال الطبقة الرابعة في البصرة:

١- سيبويه: هو أبو بشر عمرو بن عثمان مولى بني الحارث بن كعب، وسيبويه مركب مزجي من كلمتين فارسيتين: إحداهما سيب ومعناها تفاح، وويه ومعناها رائحة، أي: رائحة التفاح، لقب بذلك لأن وجنتيه كانتا كأنهما تفاحتان، وقيل لأن أمه كانت ترقصه بذلك في صغره، ولد بالبيضاء: بلدٌ بفارس، من سلالة فارسية، ونشأ بالبصرة، ورغب في تعلم الحديث والفقه على شيخه حماد البصري، ثم اهتم بالنحو بعد أن أَنَّبه شيخه حماد ولحنه، إذ كان يستملي منه قوله ﷺ: «ليس من أصحابي أحد إلا ولو شئت لأخذت عليه

ليس أبا الدرداء»، فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء، فصاح به: لحنت يا سيبويه، إنما هذا استثناء، فقال سيبويه: والله لأطلبنَّ علما لا يلحنني معه أحد، ثم مضى ولزم الخليل ويونس وغيرهما من علماء البصرة، وبرع في النحو حتى بز أترابه ومشايخه وصار إمام البصرة غير مدافع، وأخرج للناس كتابه الذي ينطق بفضله ويشهد بعلو كعبه، ولقد عظم شأن الكتاب في البصرة حتى صار علما بالغلبة عليه، وسُمِّيَ قرآن النحو إكبارا لشأنه، وقد تقاعس العلماء حينا عن وضع كتاب جديد في النحو بعده، حتى كان المازني يقول: من أراد أن يصنف كتاباً جديداً في النحو بعد سيبويه فليستح، وكان المبرد إذا أراد أحدٌ أن يقرأ عليه كتاب سيبويه يقول له: هل ركبت البحر؟ استعظاما لما فيه.

مرض إثرَ المناظرة التي كانت بينه وبين الكسائي أمام الرشيد ببغداد، خرج سيبويه منها مخذولا مقهورا، وَعَزَّ عليه أن يعود إلى البصرة بعد هذا الخذلان، فذهب إلى بلده بفارس وما كاد يصل إليها حتى اشتدت علته فمات في ريعان شبابه سنة (١٨٨هـ) وقال قرب احتضاره:

يؤمـــــل دنيـــــا لتبقـــــى له ... فـــــمات المُؤَمِّل قبـــــل الأمل

حثيثا يروي أصول الفســـــيل ... فعاش الفســـــيل ومات الرجل

٢- اليزيدي: هو أبو محمد يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوي مولى بني عدي نشأ بالبصرة وتلقى عن أبي عمرو والخليل وغيرهما، اشتهر فضله وعرف بالنحو واللغة والأخبار، اختاره يزيد بن منصور الحميري خال المهدي لأدب أولاده ببغداد، ولذا لقب باليزيدي، ثم اختصه الرشيد بأدب المأمون كما كان الكسائي مؤدب الأمين، وصار يدرس في مساجد بغداد كما يدرس الكسائي، فتولدت بينهما المنافسة وحدثت بينهما المناظرات، وكانت الغلبة

في أغلبها لليزيدي[١]، له مؤلفات في متنوع العلوم، ومنها مختصر في النحو، توفي بخراسان سنة (٢٠٢هـ).

٣- أبو زيد: سعيد بن أوس الأنصاري الخزرجي، نشأ بالبصرة، ثم رحل إلى العرب بالبوادي، وكان يعاصره بالبصرة الأصمعي وأبو عبيدة معمر بن المثنى، وكان أعلمهم أبو زيد فالأصمعي فأبو عبيدة، يقول المازني: كنا عند أبي زيد فجاء الأصمعي فأكب على رأسه وجلس وقال: هذا عالمنا ومعلمنا منذ عشر سنين، ولم يكن متعصبا كسائر البصريين، ولذا روى عن المفضل الضبي من أهل الكوفة، له مصنفات كثيرة منوعة وله في النحو كتاب تخفيف الهمزة على مذهب النحو توفي سنة (٢١٥هـ).

٤- الأصمعي: هو أبو سعيد عبد الملك بن قُريب بن أصمع بن علي بن أصمع الباهلي، كان أتقن القوم للغة وأعلمهم بالشعر وأحضرهم حفظاً، يقول حماد بن اسحاق بن إبراهيم الموصلي: كنت عند أبي يوما فقال: يا بني عجائب الدنيا معروفة ومنها الأصمعي، توفي سنة (٢١٦هـ).

---

(١) من مناظراته مع اليزيدي ما روي أنه اجتمع الكسائي واليزيدي عند الرشيد فجرت بينهما مسائل كثيرة، فقال له اليزيدي: أتجيز البيتين:

ما رأينا خرباً نقـ ـر عنه البيض صقر
لا يكون العير مهراً لا يكون المهر مهر

فقال الكسائي: يجوز على الإقواء وحقه لا يكون المهر مهرا، فقال له اليزيدي: انظر جيداً وأعاد الكسائي ما قاله أولا، فقال اليزيدي: لا يكون المهر مهراً محال في الإعراب، والبيتان جيدان، وإنما ابتدأ فقال: المهر مهر، وضرب بقلنسوته الأرض وقال: أنا أبو محمد، يريد أن قوله «لا يكون» في أول الشطر الثاني تأكيد لفظي لـ«لا يكون» الأولى، وما بعده «المهر مهر» تأكيد معنوي لقوله «لا يكون العير مهراً»، وهذا القول إيضاح لما في البيت الأول، وهو أن الصقر لا يكون منه الخرب: (ذكر الحبارى)، كما لا يكون العير -أي: الحمار الوحشي- مهرا.

- ما يقابل الطبقة الرابعة البصرية في الكوفة:

يقابلها في الكوفة الطبقة الثانية، وأشهر رجالها:

١- الكسائي: هو أبو الحسن علي بن حمزة مولى بني أسد، فارسي الأصل، سئل عن سبب تلقيبه بالكسائي، فقال: لأني أحرمت في كساء.

نشأ في الكوفة، وتعلم النحو على كبر لأنه لما حادث قوما من الهباريين لحنوه فعز عليه، وطفق يتعلم النحو، فأخذ عن معاذ الهراء ما عنده، ثم توجه إلى البصرة فتلقى عن عيسى بن عمر والخليل وغيرهما، وذهب إلى بوادي الحجاز ونجد وتهامة، ورجع إلى البصرة وجلس في حلقة يونس بعد موت الخليل، وجرت بينهما مسائل اعترف له بها يونس[١].

ثم عاد إلى الكوفة ينشر علمه، ونشط في الدراسة والتأليف حتى تقوى به المذهب الكوفي، وأخذ يناهض المذهب البصري، وقدم إلى بغداد باستدعاء من أمير المؤمنين المهدي، وضمه إلى حاشية ابنه الرشيد، فجعله الرشيد بعد الخلافة مؤدب ولديه: الأمين والمأمون، وذاع صيته حتى صار من جلساء الخليفة المؤانسين.

وكانت تجري بينه وبين اليزيدي والأصمعي[٢] وسيبويه مناظرات، وانتصر

---

(١) في الكامل للمبرد: يروى أن يونس بن حبيب قال لأبي الحسن الكسائي: كيف تنشد بيت الفرزدق؟ فأنشده:

غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عبيطات السدائف والخمرُ

فقال الكسائي: لما قال:

غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عبيطات السدائف

تم الكلام، فحمل الخمر على المعنى، أراد: وحلت له الخمر، فقال له: ما أحسن ما قلت!

(٢) من المناظرات التي جرت بينه وبين الأصمعي ما رواه الزجاجي في أماليه: أنشد الكسائي بمجلس هارون الرشيد وبحضرته الأصمعي:

على سيبويه في المناظرة التي جرت بينهما أمام الرشيد، وبعدها ساد المذهب الكوفي وظهر علماؤه وتكاثرت أتباعه، وله مصنفات كثيرة، منها: مختصر في النحو، وفي الصرف كتاب المصادر، وتوفي بالري سنة (١٨٩هـ).

(ج) الطبقة الخامسة في البصرة، أشهر رجالها:

١- الأخفش : أبو الحسن سعيد بن مسعدة مولى بني مجاشع من دارم من بطون تميم، توفي سنة (٢١١هـ)، وهو أوسط الأخافشة الثلاثة، قبله الأخفش

أنَّى جزَوْا عامرا سوأى بفعلهم أم كيف يجزونني السوأى من الحسن
أم كيف ينفع ما تعطي العَلوق به رئمان أنف إذا ما ضُنّ باللبن

ورفع «رئمان» فرد عليه الأصمعي، وقال: إنه بالنصب، فقال له الكسائي: اسكت، ما أنت وهذا؟ ثم قال: يجوز الرفع والنصب والجر، العلوق: الناقة التي ترأم البوّ، وهو جلد الحوار (العجل الصغير) يحشى تبنا ويقدم لها إيهاما أنه ولدها عند فقده، والرئمان: مصدر سماعي لرئم كسمع وأضافه إلى الأنف لأنه مظهر حنوها.

أما الرفع فعلى وجهين كما قال أبو علي الفارسي:

١-بدل كل من ما، وما اسم موصول بمعنى الذي فاعل ينفع، وتعطي مضمن معنى تسمح وتجود، ولذا عُدِّيَ بالباء في قوله به، والهاء في به عائد على ما، والمعنى: ما ينفع الشيء الذي تجود به العلوق الذي هو رئمان أنف وعطفها به في حين أنها تضن باللبن، وقد ضربه الشاعر مثلا لقومه إذ أطمعوه ولم يعطوه، أي: ماذا يفيدني أن تعطفوا عليَّ عطفا ظاهريا وتمنعوني رفدكم؟ فهو يقول إن حالهم معه كحال الناقة التي تعطف على البو بأنفها حين ينكره قلبها فلا ترسل لبنها.

٢-أنه خبر لمبتدأ محذوف، كأنه لما قال: أم كيف ينفع ما تعطي العلوق به قيل له وما تعطي العلوق به؟ فقال: رئمان أنف أي هو رئمان أنف.

وأما النصب فعلى أنه مفعول ثان لتعطي من غير تضمين، والهاء من به عائد على ما، والباء للسببية والاستعانة، والمفعول الأول محذوف «البَوّ» ويدل عليه كلمة «العلوق»، إذ هي الناقة التي تعطف على غير ولدها وهو البو، والشيء الذي تعطي العلوق بسببه ومستعينة به هو أنفها، والمعنى: ماذا ينفع الشيء «الأنف» الذي تعطي العلوق بسببه أو مستعينة به البوّ رئمانَ أنف وعطفه.

وأما الجر فعلى أنه بدل من ضمير به، على تضمين تعطي معنى تجود وتسمح، والمعني: ما ينفع الشيء الذي تعطي العلوق به برئمان أنف؟

الأكبر شيخ سيبويه وبعده الأخفش الصغير تلميذ المبرد، والأخفش هذا أشهرهم ذكرا، ولذا ينصرف إليه الحديث عند ذكر كلمة الأخفش مجردة عن الوصف.

تلقى مع سيبويه على شيوخه، ثم أخذ عن سيبويه مع كبر سنه عنه، ولقد كان أنحى تلاميذه وأعلمهم بكتابه، ولذا كان يقول: ما وضع سيبويه في كتابه شيئا إلا عرضه علي، وكان يرى أنه أعلم به مني وأنا اليوم أعلم به منه.

رحل إلى بغداد بعد خذلان سيبويه في المناظرة، وأراد أن يثأر لأستاذه وزميله، فتحرش بالكسائي وسأله أمام تلامذته: الفراء والأحمر وغيرهما وخطأه في إجابته، حتى هم التلامذة بالوثوب عليه، ولكن الكسائي منعهم وأكرم مثواه، فأقام مع الكسائي ينعم بالحياة الرغيدة وجعله مؤدب أولاده، وقرأ له كتاب سيبويه سرا، ولذا تغيرت عصبية الأخفش للبصريين حتى وافق الكوفيين في كثير من آرائهم، كما تغيرت نزعته البصرية «نزعة السماع» إلى النزعة الكوفية «نزعة القياس النظري» كالكوفيين.

ومن المسائل التي وافق فيها الكوفيين:

(١) جواز رفع الوصف للفاعل الظاهر من غير اعتماد على نفي أو استفهام، وكذا الظرف نحو: قائم الزيدان وفي الدار زيد، فيجوز أن يعرب الاسم الظاهر فاعلا بالوصف وبالظرف.

(٢) جواز زيادة من في الإيجاب مع المعرفة خلافا للبصريين، فإنهم يشترطون لزيادة من تقدم نفي أو شبهه، وأن يكون مدخولها نكرة.

ومن المسائل التي عول فيها الأخفش على القياس النظري مخالفا في ذلك البصريين والكوفيين:

(١) جواز منع الصرف لأفعل الصفة مع قبوله التاء، نحو: أرمل قياسا على أحمر مع مخالفته له، إذ مؤنث أحمر حمراء ومؤنث أرمل أرملة، ولكنه اكتفى بمشابهته لأحمر في الوزن والوصفية.

(٢) جواز رفع المضارع بعد حتى المسبوقة بالنفي قياسا على الإيجاب، واعتبار النفي داخلا على الكلام برمته، نحو: ما سرت حتى تدخل المدينة، قال الدماميني: إنما أجازه بالقياس لا بالسماع.

(٣) جواز صوغ اسم فعل الأمر من الرباعي على فعلال قياسا على صوغ اسم فعل الأمر من الثلاثي على فعال كنزال وجلاس، مع أنه لم يسمع من الرباعي.

وله مؤلفات كثيرة، منها في النحو: المقاييس، والأوسط.

٢- قطرب: هو أبو علي محمد بن المستنير، نشأ بالبصرة وتلقى عن عيسى بن عمر وسيبويه وغيرهما، لقب بقطرب لأن سيبويه كان كلما خرج سحراً من بيته وجده على بابه، فقال له: إنما أنت قطرب ليل، فأطلق عليه، له مؤلفات كثيرة، منها في النحو كتاب العلل، توفي سنة (٢٠٦هـ).

- ما يقابل الطبقة الخامسة:

يقابل الطبقة الخامسة البصرية الطبقة الثالثة بالكوفة وأشهر رجالها:

١- الأحمر: هو أبو الحسن علي بن الحسن، كان من الجنود الواقفين على باب الرشيد وكان يترصد الكسائي عند حضوره للرشيد ويسير في حاشيته وركابه، يسأله عن المسألة تلو الأخرى، حتى عد من أصحاب الكسائي، وكان ذكيا فطنا حريصا على الاستزادة من العلم، وبذا بز أصحاب الكسائي وتبوأ مكانته وأنابه عنه في تأديب أولاد الرشيد، أملى شواهد نحوية وألف كتاب

التصريف، وتوفي سنة (١٩٤هـ) بطريق الحج.

٢- الفراء: هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور، مولى بني أسد وقيل: مولى بني مِنْقر، ولد بالكوفة وتلقى العلم عن الكسائي وغيره، وأخذ عن أعراب سمع منهم، وتبحر في علوم منوعة رآه أبو بشر ثمامة بن الأشرس النميري واقفا على باب المأمون يريد الوصول إليه ولم يكن يعرفه، وكان أبو بشر من المقربين للمأمون، يقول: ناقشته في اللغة فوجدته بحرا وناقشته في النحو فشاهدته نسيج وحده، وفي الفقه فوجدته رجلا فقيها، ووجدته بالنجوم ماهرا، وبالطب خبيرا، وبأيام العرب وأشعارهم حاذقا، فقلت من يكون وما أظنك إلا الفراء، فقال: إنه هو، فدخلت وأعلمت أمير المؤمنين المأمون فأمر بإحضاره لوقته وحاطه برعايته، وعهد إليه أن يؤدب ولديه.

كما اقترح عليه أن يؤلف كتاباً يجمع أصول النحو، وهيأ له دارا خاصة فيها وسائل النعيم متكاملة، كما أعد له الوراقين، فكان يملي والوراقون يكتبون، حتى أتم الكتاب في سنتين، ثم ألف كتاب المعاني بعد أن أرسل له أحد أصحابه وهو عمر بن بكير وكان يصحب الحسن بن سهل: إن الأمير يسألني عن أشياء من القرآن لا يحضرني عنها جواب، فإن رأيت أن تجمع لي أصولا وتجعل ذلك كتابا يرجع إليه فعلت، فقال لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتابا في القرآن، وكتابه هذا نحو ألف ورقة.

ومن مؤلفاته عدا هذين كتاب المصادر في القرآن، وكتاب الجمع والتثنية، وكتاب الوقف والابتداء، وكتاب النوادر، تبلغ كتبه ثلاثة آلاف ورقة، قال سلمة ابن عاصم: أملى الفراء كتبه كلها حفظا لم يأخذ بيده نسخة إلا في كتابين، وتبلغ أوراق الكتابين خمسين ورقة.

وسمي الفراء لأنه كان يفري الكلام، وكان يقال فيه: الفراء أمير المؤمنين في النحو، وهو القائل أموت وفي نفسي من حتى شيء لأنها ترفع وتنصب وتخفض، توفي سنة (٢٠٧هـ) في طريق مكة.

٣- اللحياني: هو أبو الحسن علي بن المبارك من بني لحيان، أخذ عن الكسائي وغيره، وله كتاب النوادر، توفي سنة (٢٢٠هـ).

الدور الثالث: دور النضج والكمال

يبدأ هذا الدور من عهد أبي عثمان المازني البصري إمام الطبقة السادسة من البصريين ويعقوب بن السِّكيت الكوفي زعيم الطبقة الرابعة الكوفية، إلى آخر عصر المبرد زعيم الطبقة السابعة البصرية وثعلب إمام الطبقة الخامسة الكوفية.

فأنت ترى أنه تلاقى في هذا الدور طبقتان من نحاة كُلٍّ من البصرة والكوفة: السادسة والسابعة في البصرة، والرابعة والخامسة في الكوفة.

*** أثر هذا الدور:**

في هذا الدور اشتدت المنافسة بين علماء المصرين: البصرة والكوفة، وشمر كُلٌّ عن ساعد الجد، تسوقهم العصبية والرغبة في التغلب على منافسه.

*** التقاء علماء هذا الدور في بغداد:**

ولما كثرت الاضطرابات بالبصرة والكوفة هاجر كثير من علمائهما إلى بغداد، فكثيراً ما كان يجتمع الفريقان، وتحدث بينهما مناظرات ومحاورات تثير الإحن والأحقاد في نفوسهما ونفوس مشايعيهما، وتبعثهم على النشاط وبذل أقصى الجهد في البحث والاستقراء والاستنباط، حتى أكملوا ما فات السابقين، وفَصَّلُوا ما أجملوا، وبسطوا ما اختصروا، وأكملوا التعريفات، وهَذَّبُوا الاصطلاحات، وفصلوا النحو عن الصرف وأفردوه بالتأليف.

وأول من سلك هذا الطريق من البصريين أبو عثمان المازني، فقد ألف في الصرف وحده، ومن ذلك الحين تشعبت المسالك وتعددت السبل والمذاهب،

فمن العلماء من ألف في النحو وحده، ومنهم من ألف في الصرف وحده، ومنهم من مزج النحو بالصرف، ومنهم من جمع في مؤلفه بين الطرائف الأدبية والتحقيقات اللغوية والبحوث النحوية كما صنع المبرد في كتاب الكامل.

ولم ينقضِ هذا الطور حتى انتشرت دراسة النحو دراسة وافية في المدن الثلاث: البصرة والكوفة وبغداد، وأخذ الجميع يتعاونون على استكمال قواعده، بعد أن فترت حدة المنافسة بين الفريقين وانطفأت نار العصبية، بفضل تلاقيهما في بغداد واتصالهما بالشعب البغدادي الذي اتجه كثير من علمائه إلى الترجيح بين المذهبين.

*** أشهر علماء هذا الدور – طبقاته:**

(أ) الطبقة السادسة في البصرة، أشهر رجالها:

١ – الجرمي: وهو أبو عمر صالح بن إسحاق مولى جَرم من قبائل اليمن، نشأ بالبصرة وتعلم على شيوخها، وسمع من يونس والأخفش الأوسط، ولم يلقَ سيبويه وعاصر المازني وكان أديبا شاعراً، له مؤلفات كثيرة، منها في النحو: كتاب الفرخ (فرخ كتاب سيبويه)، والمختصر في النحو، توفي ببغداد سنة (٢٢٥ هـ).

٢ – التوزي: هو أبو محمد عبد الله بن محمد مولى قريش التوزي (نسبة لتوز: بلدة بفارس)، أخذ عن الجرمي كتاب سيبويه واشتهر باللغة والأدب، توفي سنة (٢٣٨هـ).

٣– المازني: هو أبو عثمان بكر بن محمد مولى بني سدوس، ولد بالبصرة وتربى في بني مازن من شيبان فنسب إليهم، وأخذ مع رفيقه الجرمي عن أبي عبيدة وأبي زيد والأخفش وغيرهم، وكان بارعا في الأدب حاذقا في الجدال

والحجاج[١]، لذا لم يلبث أن صار علم البصرة الخفاق، حتى قال الناس: لم يكن بعد سيبويه أعلم من المازني بالنحو، ألف في علل النحو وفي التصريف وغير ذلك، ولكنه لم يؤلف في النحو على طول باعه فيه، إذ كان يقول -كما تقدم- من أراد أن يصنف كتاباً واسعاً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستح، توفي بالبصرة سنة (٢٤٩هـ).

٤- أبو حاتم السجستاني: هو سهل بن محمد، نشأ بالبصرة وأخذ عن أبي زيد والأصمعي وأبي عبيدة، له مؤلفات مختلفة، منها: إعراب القرآن، وكتاب الإدغام، توفي سنة (٢٥٠هـ).

٥- الرياشي: هو أبو الفضل العباس بن الفرج مولى محمد بن سليمان الرياشي، نشأ بالبصرة وأخذ النحو عن المازني واللغة عن الأصمعي، وصار من كبار النحاة واللغويين، مات قتيلا وهو يصلي الصبح بالبصرة سنة (٢٥٧هـ).

- ما يقابل هذه الطبقة في الكوفة:

ويقابل هذه الطبقة: الطبقة الرابعة في الكوفة، أشهر رجالها:

١- ابن سعدان: وهو أبو جعفر الضرير محمد بن سعدان، نشأ بالكوفة وأخذ عن أبي معاوية الضرير وغيره، ثم اشتهر بالعربية والقراءات، ألف كتابا في النحو، توفي سنة (٢٣١ هـ).

---

(١) تغلب على الأخفش مع تلقيه عنه، ولقد استقدمه من البصرة أمير المؤمنين الواثق بالله إليه في سامرا مقر الخلافة حينئذ، لَمَّا أنشد مخارق قول الحارث بن خالد المخزومي:

أظلوم إن مصابكم رجلا أهدى السلام تحية ظلم

بنصب رجل فاعترض عليه علماء الكوفة وقالوا: يجب رفع رجل، وتمسك مخارق بالنصب كما رواه عن المازني، فلما قدم المازني أوجب النصب معللا ذلك بأنه مفعول لمصابكم وهو مصدر ميمي، فعظم شأنه عند الخليفة ورغبه في البقاء معه، فاعتذر وعاد إلى البصرة بعد أن أجزل له العطاء.

٢- الطوال: هو أبو عبدالله محمد بن أحمد، نشأ بالكوفة وسمع من الكسائي وغيره، وقدم بغداد وتوفي بها سنة (٢٤٣هـ).

٣- ابن السِّكيت: هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، نشأ ببغداد وسمع من الفراء وغيره ونبغ في النحو وغيره من علوم العربية، وإليه وإلى أبي العباس ثعلب ينتهي علم الكوفيين، ويعقوب أسن من ثعلب، خرج إلى سامرّا فاتخذه المتوكل مؤدب ولديه: المعتز والمؤيد، ولشهرته بالتشيع سأله المتوكل يوما: أيهما أحب إليك ابناي أم الحسن والحسين؟ فأجابه بما أغضبه، فأمر الأتراك فسلوا لسانه وداسوا بطنه فمات سنة (٢٤٣هـ)، له مؤلفات كثيرة، منها: كتاب القلب والإبدال، وفعل وأفعل، وإصلاح المنطق.

(ب) الطبقة السابعة في البصرة، أشهر رجالها:

١- المبرِّد بكسر الراء: هو أبو العباس محمد بن يزيد، من بني ثمالة (بطن من أزد شنوءة)، ولد بالبصرة، وسبب تسميته بالمبرد أن المازني لما صنف كتابه «الألف واللام» سأله عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب، فقال له المازني: قم فأنت المبرد (المثبت للحق)، فحرفه الكوفيون وفتحوا الراء، كان غير متقيد بمذهب البصريين والكوفيين[1]، وكان مبرزا فذا في النحو والصرف واللغة والأدب ومعرفة أيام العرب وأخبارهم وأشعارهم، كما يشهد بذلك كتاب «الكامل» الذي جمع من كل دوحة غصنا، ألف في علوم منوعة، له غير الكامل: المقتضب في النحو، وشرح شواهد سيبويه والرد عليه، وله في

(١) من ذلك: منعه تقديم خبر ليس عليها مع إجازة البصريين والكوفيين ذلك، وتجويزه ظهور كان، بعد أما في نحو: أما أنت منطلقا انطلقت، على أن ما زائدة لا عوض عن كان، وإنكاره وقوع الضمير المتصل بعد لولا مثل: لولاي ولولاك ولولاه، والسماع يرد قوله.

تاريخ النحاة: طبقات النحويين البصريين وغيرهم، رحل إلى بغداد فاتصل بالخلفاء والأمراء، وأخذ ينافس ثعلب إمام الكوفيين، وجرت بينهما مناظرات ومحاورات، فوقعت بينهما العداوة والبغضاء ودام النفور بينهما حتى لقي المبرد ربه، توفي في بغداد سنة (٢٨٥هـ).

- ما يقابل هذه الطبقة في الكوفة:

ويقابل الطبقة السابعة البصرية: الطبقة الخامسة بالكوفة، وأشهر رجالها:

١- ثعلب: هو أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب مولى بني شيبان، ولد ببغداد وتلقى عن ابن الأعرابي وابن سلام وابن قادم وغيرهم، وكان للنحو من بين علوم اللغة العربية النصيب الأوفى من عنايته، وكان له حافظة قوية مكنته أن يستظهر ما يقرؤه، فحفظ كتب الكسائي والفراء وقرأ كتاب سيبويه فكانت له رئاسة النحو في الكوفة، وكان أستاذاً لابن طاهر وابن المعتز، اتصل بالخلفاء والأمراء، واجتمع بالمبرد زعيم البصريين وكانت بينهما المناظرات العلمية، ولكل منهما شيعته وحزبه، وكذلك كانت بينه وبين الرياشي مجالس علمية[1].

حدث أبو بكر بن مجاهد قال: كنت عند أبي العباس ثعلب فقال: يا أبا أبكر اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن، واشتغل أهل الحديث بالحديث، وأهل الفقه بالفقه، ففازوا، واشتغلت أنا بزيد وعمرو، فليت شعري ما يكون حالي

(١) قال ياقوت: قال أبو العباس: ثعلب كنت أسير إلى الرياشي لأسمع وكان نقي العلم فقال لي يوما وقد قرئ عليه

ما تنقم الحرب العوان مني بازل عامين حديث سن

تقول بازلُ أو بازلَ؟ فقلت: أتقول هذا في العربية إنما أقصدك لغير هذا، يروى بازلُ وبازلِ وبازلَ بالرفع على الاستئناف والخفض على الإتباع والنصب على الحال فاستحيا، وأمسك.

في الآخرة؟ فانصرفت من عنده فرأيت تلك الليلة النبي ﷺ في المنام فقال لي: أقرئ أبا العباس مني السلام، وقل له: أنت صاحب العلم المستطيل، قال الروذباري: أراد أن الكلام به يكمل والخطاب به يجمل، أو أراد أن جميع العلوم مفتقرة إليه.

له مؤلفات شتى، منها في النحو: اختلاف النحويين، وما ينصرف وما لا ينصرف، وحد النحو، توفي ببغداد سنة (٢٩١هـ).

دور الترجيح - المذهب البغدادي

بعد أن تم الدور الثالث: دور النضج والكمال على يد الفريقين في بغداد وانتهى الاجتهاد فيه على يد الإمامين المبرد وثعلب، وبعد أن فترت حدة الحزبية وانقضت حياة المجتهدين، هب فريق من علماء بغداد للموازنة والترجيح بين المذهبين البصري والكوفي، فأخذوا يضعون المذهبين على بساط البحث والنقد مستعرضين في ذلك الروايات والشواهد والأقيسة التي بنيت عليها القواعد، ليقفوا على موطنها من الصحة والفساد والقوة والضعف حتى يُبنى حكمهم على أساس صحيح.

ولا يخفي عليك أن العلماء في بغداد في ذلك الوقت اختلفت مشاربهم وتباينت مسالكهم، فكان منهم من تلقى عن البصريين، ومنهم من تلقى عن الكوفيين، وفريق استمع إلى المذهبين وأخذ عن الفريقين، كذلك كان منهم من يحرص على ترسم خطى من تلقى عنه فغلبت عليه الطائفية، ومنهم من ينظر إلى العلم نظرة خالصة متحرراً من قيود الحزبية والعصبية، لذا جاءت أحكامهم متباينة وكانوا في ذلك ثلاث طوائف:

(أ) طائفة غلبت عليها النزعة البصرية، فرجحت المذهب البصري، ومن أشهر رجال هذه الطائفة:

١- الزجاج: وهو أبو إسحاق بن السري، لقب بالزجاج لأنه كان يخرط الزجاج، نشأ ببغداد وتلقى عن ثعلب وعن المبرد، ورفع المبرد من شأنه حتى جعله مؤدب القاسم بن عبيد الله الذي صار وزيرا بعدُ للمعتضد، فقربه للخليفة

حتى صار من ندمائه، له مؤلفات منها: مختصر النحو، وما ينصرف وما لا ينصرف، وشرح أبيات سيبويه، وقد خَطَّأَ ثعلبا في كتابه «الفصيح» لَمَّا عرض ثعلب لتخطئة سيبويه في الكتاب، توفي سنة (٣١٠هـ).

٢- ابن السراج: أبو بكر محمد بن السري، نشأ ببغداد وسمع من المبرد وقرأ عليه كتاب سيبويه، برز في العربية وخلف المبرد في بغداد، ألف في النحو: كتاب الأصول، جمع فيه أصول العربية ورتب مسائل سيبويه، وكتاب جمل الأصول، وشرح كتاب سيبويه، والموجز، توفي سنة (٣١٦هـ).

٣- الزجاجي: أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، من نهاوند، قدم بغداد وسمع من ابن السراج والأخفش، ولازم الزجاج فنسب إليه، من مؤلفاته في النحو: الجمل، والإيضاح الكافي، والأمالي، توفي بدمشق سنة (٣٣٧هـ).

٤- ابن درستويه: أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه الفارسي، نشأ بفسا من فارس، وأقام ببغداد وتلقى عن المبرد وثعلب وابن قتيبة، وكان شديد التعصب للمذهب البصري، من مؤلفاته في النحو: أسرار النحو، والرد على ثعلب في اختلاف النحويين، وأخبار النحويين، توفي سنة (٣٤٧هـ).

٥- السيرافي: أبو سعيد الحسن بن عبد الله، نشأ بسيراف وارتحل إلى عمان ثم بغداد وتوطنها وولي القضاء بها، أخذ عن ابن السراج ومبرمان وابن دريد وغيرهم[1]، له مؤلفات قيمة في النحو، منها: شرح كتاب سيبويه، وكتاب

---

(١) دخل على ابن دريد وهو يقول: أول من أقوى في الشعر آدم في قوله:

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي لون وطعم وقل بشاشة الوجه المليح

فقال: يمكن إنشاده على وجه لا إقواء فيه، وذلك بنصب بشاشة على التمييز ورفع المليح بقل وحذف التنوين لالتقاء الساكنين، فرفعه حتى أقعده بجانبه.

أخبار البصريين والكوفيين، توفي سنة (٣٦٨هـ).

٦- الفارسي: هو أبو علي الحسن بن أحمد، نشأ بفسا من بلاد فارس، ثم ورد بغداد، فأخذ النحو عن الزجاج ومبرمان وابن السراج وغيرهم، وقد ارتفع ذكره في الأقطار الإسلامية، واتصل بملوكها وأمرائها، ورحل إلى حلب وكانت له عند سيف الدولة الحمداني المنزلة العليا، ثم عاد إلى فارس فنال من عضد الدولة البويهي فوق ما يبغي ويؤمل، ولقد كان ارتفاع شأنه مدعاة لحقد معاصريه عليه كالسيرافي وابن خالويه، من مؤلفاته في النحو: الإيضاح، والتكملة، والتذكرة، والمسائل: الحلبية، والبغدادية، والشيرازية، توفي ببغداد سنة (٣٧٧هـ).

(ب) وطائفة أخرى غلبت عليها النزعة الكوفية، ومن أشهرها:

١- ابن الأنباري أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري توفي سنة (٣٢٧هـ).

٢- وابن خالويه: أبو عبد الله الحسن بن أحمد، نشأ بهمذان ثم رحل إلى بغداد، وتلقى عن ابن الأنباري وابن دريد والسيرافي وغيرهم، ثم رحل إلى بغداد وتوطن بها، وقد دفعته العصبية الكوفية إلى انتصاره لثعلب، فرد على الزجاج اعتراضاته التي أوردها على كتاب الفصيح، ومن مؤلفاته في العربية «ليس»، توفي بحلب سنة (٣٧٠هـ).

(ج) وطائفة ثالثة جمعت بين النزعتين، فاختارت من كل مذهب المسائل التي قوي دليلها وصحت مصادرها، ومن أشهر علماء هذه الطائفة:

١- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة (٢٧٦هـ).

٢- وابن كيسان: أبو الحسن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن كيسان، أخذ

عن ثعلب وعن المبرد، ومن مؤلفاته في النحو: المهذب، والمختار في علل النحو، والمسائل على مذهب النحويين مما اختلف فيه البصريون والكوفيون، توفي ببغداد سنة (٢٩٩هـ).

٣- والأخفش الصغير: أبو الحسن علي بن سليمان، من مؤلفاته في النحو: كتاب التثنية والجمع، توفي ببغداد سنة (٣١٥هـ).

وعلى يد هذه الطائفة تكون المذهب البغدادي، فقواعده مزيج من المذهبين مضافا إليها بعض القواعد، هداهم إليها عمق بحثهم واستقرائهم[١].

ولقد تأثر العلماء في البلاد الإسلامية بهذه النزعات، لأن بغداد كانت كعبة الجميع، يؤمها العلماء من جميع الأقطار، لذا اختلفت نزعاتهم تبعا لشيوخهم الذين تلقوا عنهم.

غير أن المذهب البغدادي لم يدم طويلا، بل أخذ يتلاشى شيئاً فشيئا بعد منتصف القرن الرابع الهجري، حينما دب الضعف إلى الدولة العباسية وكثرت الاضطرابات ببغداد، فكان ذلك مدعاة إلى تفرق علماء بغداد في الأقطار وتغير نظراتهم بتغير بيئتهم، ولقد كانت الغلبة في النهاية للمذهب البصري، لذا اعتبره معظم المؤلفين في جميع الأقطار الإسلامية أساساً لمؤلفاتهم.

---

(١) من القواعد التي انفردوا بها مخالفين فيها البصريين والكوفيين: جواز تعريف الحال مطلقا، وجواز عدم الفصل بين أن المخففة والفعل المتصرف، وجواز إتباع محل المعطوف عليه مع عدم أصالته، فيجيزون: هذا ضارب محمدا وأخيه بالجر، ويمنع ذلك جمهور البصريين والكوفيين، لأن الوصف المستوفي لشروط العمل الأصل إعماله، وإضافته على خلاف الأصل، ومن ذلك: جواز بناء اسم لا مع ارتباط الظرف والجار والمجرور به، فيجيزون أن يكون الظرف في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ متعلقا بعاصم.

الخلاف بين البصريين والكوفيين
منشؤه – أثره

اعلم أن قواعد النحو وقضاياه مبناها عند كل من الفريقين السماع والقياس[١]، غير أن نظرتيهما إلى كل من السماع والقياس مختلفة، ومسلك كلٍّ في وضع قواعده يغاير مسلك الآخر واتجاهه، وإليك بيان ذلك:

*** اتجاه البصريين ومسلكهم:**

سلك البصريون في بناء قواعدهم على السماع مسلك التحفظ والحيطة، وبالغوا في التحري والتنقيب عن الشواهد التي بنوا عليها قواعدهم، وجعلوها أصلا لأقيستهم، فاشترطوا ثبوتها والوثوق براويها وسلامة قائلها، كما اشترطوا شيوعها وكثرتها حتى تطمئن نفوسهم إلى نوط القاعدة بها ورفض ما خالفها.

فلم يعولوا إلا على ما ثبت عن الفصحاء الموثوق بعربيتهم وسلامة فطرتهم، كقبائل قيس وتميم وأسد، ورفضوا من الشواهد ما لم تثبت صحته وما اتهم راويه، كما تجافوا الأخذ عن أهل الحضر وعمن سرى إلى ملكته أو لسانه الفساد بمخالطة غير العرب، كقبيلتي لخم وجُذام لمجاورتهما أهل مصر، وقُضاعة وغسان جاورتهما الروم، وقبيلتي بكر وتغلب لمخالطتهما الفرس.

---

(١) المراد بالسماع: ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته، ككلام الله وكلام رسوله وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده، إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين، نظما ونثرا، والمراد بالقياس: حمل غير المنقول على المنقول، إذا كان بمعناه.

ولم يطمئنوا إلى القليل فلم يجعلوه أصلا يقاس عليه، اللهم إلا إذا لم يرد من نوعه ما يخالفه، أو بعبارة أخرى: إذا لم يخالف قاعدة بنيت على الكثير فإنهم حينئذ يعتبرونه ويعولون عليه في القياس ولو كان شاهدا واحدا، كإيجابهم حذف حرف المد من فعولة عند النسب إليها وقلب الحركة فتحة، فيقولون في النسب إلى حلوبة: حَلبى، قياسا على قولهم في النسب إلى شنوءة: شَنئي، مع أنه لم يسمع غيره، لأنه لم يسمع ما يخالفه، فهو جميع المسموع، لذا يعتبر أصلا يقاس عليه.

أما إذا كان المسموع قليلا مخالفا لما كثر من نوعه وللقاعدة التي بنيت عليه فإنهم لا يكترثون به، بل يقفون منه أحد المواقف الآتية:

(١) أن يؤولوه تأويلا يتفق مع القاعدة التي وضعوها، وذلك كتأويلهم في قوله تعالى: ﴿ لِيُجْزَى قَوْما بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون ﴾ وفي قول الطائي:

خبير بنو لهب فـــــلا تك مُلغيا مقالة لهبـــــي إذا الطير مرت

وقول عَبْدَةَ بن الطيب:

فبكى بناتي شجوهن وزوجتي والظاعنون إلي ثـــــم تصدعوا

فإن ظاهر الآية يخالف قاعدتهم: عدم نيابة الظرف أو الجار والمجرور أو المصدر عن الفاعل مع وجود المفعول به، والبيت الأول مخالف للقاعدة: لا يعمل الوصف إلا معتمداً على نفي أو استفهام أو شبههما، والبيت الثاني يرد على قولهم: يجب تذكير الفعل مع جمع المذكر، وتأنيثه مع جمع المؤنث.

وقد أجابوا عن الآية: بأن النائب هو ضمير مستتر يعود على مصدر مأخوذ من الفعل، أي ليجزى هو، أي: الجزاء.

وأولوا البيت الأول: بجعل الوصف خبراً مقدما وما بعده مبتدأ مؤخرا،

وفعيل يستوي فيه المفرد وغيره فيجوز الإخبار به عن الجمع، كما في قوله تعالى ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

وأجابوا عن البيت الثاني: بأن جمع المؤنث «بناتي» لم يسلم فيه بناء الواحد فكان كجمع التكسير.

(٢) أن يحملوه على الضرورة، كما في قول الشاعر رشيد اليشكري:

رأيتك لمـــــا أن عرفت وجوهنا صددت وطبت النفس يا قيس عن عمرو

فإن في البيت مخالفة لقاعدة وجوب تنكير التمييز، فلم يجدوا مخرجا سوى القول: إنه ضرورة.

(٣) أن ينكروه كما في قول عبد الله بن مسلم الهذلي:

لكنه شـــــاقه أن قيل: ذا رجب يا ليت عدة حـــــول كله رجبُ

فإن هذا البيت مخالف لقاعدتهم: عدم جواز تأكيد النكرة، وقد أجابوا بأن الرواية الصحيحة: عدة حولي.

(٤) أن يعتبروه شاذًا يحفظ ولا يقاس عليه، فلا يجارى في الاستعمال كما في قولهم: خذ اللص قبل يأخذَك، وتسمعَ بالمعيدي خير من أن تراه، فإن ذلك وارد على قولهم: لا تعمل «أن» محذوفة في غير مواضع إضمارها وجوباً وجوازاً، وقد أجابوا عن ذلك: بأن ذلك شاذ يوضع في صف المحفوظات التي لا يقاس عليها.

ومن ذلك أيضاً قولهم: استحوذ واستصوب واستنوق الجمل وأعول الرجل وأغيمت السماء، فإن هذه الأمثلة مخالفة للقياس، إذ القياس إعلال العين بنقل حركتها وقلبها ألفاً، لذا اعتبرت شاذة، وهي -وإن اعتبرت شاذة قياسا- مطردة استعمالا.

- موقفهم من بعض القراءات:

هذا موقفهم مما خالف القياس، وذلك لأنهم لما تحروا في بناء أقيستهم ووضع قواعدهم جعلوها الفيصل فيما يرد إليهم من الكلام، فأقروا ما جاء موافقا لها ولم يكترثوا بما خالفها، ولقد بلغ من تعويلهم على أقيستهم واعتزازهم بقواعدهم أن خطؤوا بعض الأعراب الأقحاح الذين يستشهد بقولهم[1]، وأن ردوا بعض القراءات وخطؤوا بعض القراء الذين تواترت قراءاتهم.

فقد خطؤوا حمزة الزيات أحد القراء السبعة في قراءته: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامِ ﴾ بجر الأرحام، وبها قرأ إبراهيم النخعي وقتادة، كما خطؤوا ابن عامر قارئ أهل الشام في قراءته: ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أولادَهُم شُرَكَائِهِم ﴾ بنصب أولادَهم وجر شركائهم.

وقد رد السيوطي عليهم في كتابه الاقتراح إذ يقول: كان قوم من النحاة المتقدمين يعيبون على عاصم وحمزة وابن عامر قراءات بعيدة في العربية وينسبونهم إلى اللحن، وهم مخطئون في ذلك، فإن قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التي لا مطعن فيها، وثبوت ذلك دليل على جوازه في العربية.

---

(١) تقدم لك أن ابن أبي إسحاق الحضرمي خطأ الفرزدق في قوله:

وعضّ زمان يا بن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف

وفي قوله :

ولو كان عبد الله مولي هجوته ولكن عبد الله مولي مواليا

وخطأ عيسى بن عمر النابغة في قوله:

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقْشِ في أنيابها السمّ ناقع

فقال: أساء النابغة، وكان الوجه أن يقول: ناقعا ليكون حالا، وخرجه سيبويه على أن «ناقع» هو الخبر وفي أنيابها ظرف لغو متعلق به، ويرى ابن الطراوة أنه يجوز وصف المعرفة بالنكرة إذا كان الوصف خاصا بالموصوف.

والظاهر أن رد النحاة المتقدمين لهذه القراءات إنما كان قبل تدوين القراءة وعدم وصول تواترها لديهم وإن ثبت تواترها لدى القراء، وذلك كان قبل تدوين القراءات وتمييز المتواتر من غيره، أما بعد تدوينها وتمحيصها فلا يسعهم إلا قبول المتواتر وإقراره وبناء القواعد عليه، إذا لم يخالف قياساً مشهوراً، وإلا اعتبر شاذاً قياساً فصيحاً استعمالا.

وعلى هذا سار المتأخرون، ولذا احتج ابن مالك بقراءة حمزة في الآية الأولى على جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار، وبقراءة ابن عامر في الآية الثانية على جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه بمفعول المضاف.

*** مسلك الكوفيين واتجاههم:**

وعلى العكس من مسلك البصريين سار الكوفيون: لم يبالغوا في التحري والتنقيب عن الشواهد الصحيحة السليمة كما صنع البصريون، فقبلوا كل مسموع، بل تساهلوا في التثبت من صحة المسموع وأمانة راويه وسلامة قائله.

أخذوا عن حماد الراوية وخلف الأحمر، وكلاهما متهم في روايته، يصنع الشعر وينسبه إلى غيره من الأعراب الأقحاح، كما أخذوا عن أهل الحضر، وعمن جاور المتحضرين من الأعراب الذين فسدت لغتهم بالمخالطة، ولذا يقول الرياشي البصري: نحن نأخذ اللغة عن حَرَشَة الضِّباب وأكلة اليرابيع، وهؤلاء (يعني الكوفيين) أخذوا اللغة عن أهل السواد أصحاب الكواميخ وأكلة الشواريز[1].

(١) حرشة: جمع حارش صائد الكلب، والكواميخ جمع كامخ: نوع من الأدم، والشواريز جمع شيراز: اللبن الثمين.

ويقول أبو زيد عن الكسائي زعيم الكوفيين: ثم سار إلى بغداد فلقي أعراب الحُلَيمات (قوم من زعانف العرب الذين اختل لسانهم) فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن، فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله.

ولم يشترطوا للقياس ووضع القاعدة كثرة وشيوعا، بل قاسوا على نصف البيت وعلى الشاهد الواحد، ولو جاء مخالفا للأصل المتفق عليه عند الفريقين، فما يؤوله البصريون أو يعتبرونه شاذاً أو يحملونه على الضرورة، يجعله الكوفيون أساساً لقاعدة أخرى.

قال الأندلسي: الكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول، جعلوه أصلا، وبوبوا عليه، بخلاف البصريين، بل كثيراً ما ناطوا القاعدة بالقياس، بدون رجوع إلى مطلق شاهد على القاعدة نفسها.

فمن ذلك: تجويزهم عطف المفرد بلكن بعد الإيجاب حملا على بل، نحو: جاءني زيد لكن عمرو، قال الرضي: وليس لهم به شاهد، وتجويزهم تثنية أجمع وجمعاء وتوابعهما قياسا على جمعهما، نحو: أجمعان وأكتعان وأبصعان، وهو غير مسموع، وتجويزهم الجزم بكيف مطلقا قياسا على متى وأين.

- موقفهم من القراءات

لم يقف الكوفيون من القراءات الموقف الذي وقفه متقدمو البصريين، بل اعتبروها من أهم المصادر التي بنوا عليها قواعدهم وأقيستهم، لما عرف عن القراء من الصدق والأمانة والمبالغة في التحري.

*** موقف الفريقين من الأحاديث النبوية:**

لقد وافق جمهورُ الكوفيين جمهورَ البصريين في عدم الاحتجاج بالحديث

والاستشهاد به لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول ﷺ، وذلك لأمرين:

الأول: أن الرواة جوزوا النقل بالمعنى ولذا تجد القصة الواحدة قد جرت في زمنه ﷺ تنقل بألفاظ مختلفة كحديث: «زوجتكها بما معك من القرآن» وفي رواية أخرى: «ملكتها بما معك»، وفي ثالثة: «خذها بما معك».

الثاني: أنه وقع اللحن في كثير مما روي من الأحاديث، لأن كثيرا من الرواة لم ينشؤوا في بيئة عربية خالصة، ولو وثق النحويون أن الحديث من لفظ رسول الله لاعتبروه خير سند لإثبات الألفاظ اللغوية وتقرير الأصول النحوية.

وقد قدم المرحوم الأستاذ الشيخ محمد الخضر رسالة إلى المجمع اللغوي ناقش فيها أدلة المانعين للاحتجاج به والمجوزين لذلك، ورأى أن هناك أنواعا من الأحاديث لا ينبغي الاختلاف في الاحتجاج بها وهي:

- ما يروى بقصد الاستدلال على كمال فصاحته ﷺ.

- وما يروى من الأقوال التي كان يتعبد بها، أو أمر بالتعبد بها، كألفاظ القنوت والتحيات.

- وما يروى على أنه كان يخاطب كل قوم بلغتهم.

- والأحاديث التي وردت من طرق متعددة واتحدت ألفاظها.

- والأحاديث التي دونها من نشأ في بيئة عربية لم ينتشر فيها فساد اللغة، كمالك بن أنس والإمام الشافعي.

- وما عرف من حال رواته أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى، مثل ابن سيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حيوة.

*** منشأ الخلاف بين الفريقين:**

يرجع اختلاف البصريين والكوفيين في منهجهم واتجاههم إلى أمرين:

الأول: اختلاف نزعاتهم وميولهم السياسية، فقد كانت البصرة عثمانية أموية، وكان ميول الكوفة وهواها مع العلويين والعباسيين.

الثاني: الظروف التي أحاطت بكل، والبيئة التي نشأ بها فقد أتيح لأهل البصرة من الظروف التي تمكنهم من الوقوف على موفور الشواهد السليمة ما لم يتح لأهل الكوفة، إذ كانت منطقة البصرة وما حولها تموج بمختلف العرب الذين يمثلون أغلب القبائل التي سلمت ألسنتها وملكاتها، كما كانت تعِجّ حينئذ بالرواة والحفظة، وذلك للأسباب الآتية:

(١) موقع البصرة الجغرافي، وقربها من العرب الأقحاح الذين لم تُلوث ألسنتهم ولم تَفسد ملكاتهم.

(٢) كثرة العرب الخلص الذين نزحوا إليها واتخذوها وطنا لهم، وأكثرهم من قيس وتميم الذين بقوا على عربيتهم الخالصة.

(٣) قرب «المِربد» من البصرة، إذ هو في الجهة الغربية مما يلي البادية، بينه وبينها ثلاثة أميال، وقد اتخذه العرب بعد الإسلام سوقا لهم تشبه الأسواق في الجاهلية، كعكاظ والمجنة وذي المجاز، كانت تقام فيه النوادي الأدبية والمجامع الثقافية، وتعقد فيه حلقات الإنشاد والمفاخرة، ومجالس العلم والأدب، تؤمه الشعراء ومعهم رواتهم وينزل به العلماء والأدباء للمذاكرة والمفاخرة والوقوف على مُلح الأخبار، وكان اللغويون يأخذون ويدونون ما يسمعون، والنحويون يسمعون فيه ما يصحح قواعدهم ويؤيد مذاهبهم.

من ذلك ترى أن علماء البصرة يسهل عليهم الوقوف على كثير من الشواهد السليمة، ومشافهة أهل البادية بدون مشقة تلحقهم وعناء يرهقهم، لذا سلكوا -كما تقدم- في المسموع مسلك الحيطة والتحفظ، ولم يأخذوا إلا عن قبائل معينة يطمئنون إلى سلامة سليقتها.

*** البيئة في الكوفة:**

أما الكوفيون فقد تأخر اشتغالهم بالنحو عن البصريين، ولم يشاؤوا أن يكونوا تبعا لهم يحكون أقوالهم حتى لا يفقدوا شخصيتهم مع ما بينهم من إِحَن وخصومات بسبب اختلاف النزعات السياسية، ولم تتح لهم الظروف التي أتيحت للبصريين، فلم يسهل اتصالهم بالعرب الخلص، لبعد الكوفة عن جزيرة العرب، ولم يستوطنها من الأعراب غير عدد قليل لم يبلغوا من الفصاحة وسلامة اللسان ما بلغه العرب النازلون في البصرة وما حولها.

لذا عولوا على أن يكون لهم في وضع قواعدهم منهج خاص واتجاه يغاير اتجاه البصريين، فلم يدققوا، بل قبلوا كل مسموع، واكتفوا بالشاهد الواحد في بناء القاعدة، ولم يتحروا سلامة قائله كما صنع البصريون.

*** أثر الاختلاف ونتائجه:**

ترتب على اختلاف مسلك الفريقين واتجاههم في وضع القواعد ما يأتي:

(أ) كثرة الأقيسة والقواعد عند الكوفيين، لأنهم أقاموا لكل مسموع وزنا، فقاسوا عليه وجعلوه أصلا لقاعدة، بل قد يضعون للأمر الواحد الذي يرد على صور متغايرة قواعدَ متعددة بقدر صوره، كما اعتمدوا بعد هذا على القياس النظري عند انعدام الشاهد على القاعدة نفسها انعداما كليا، بخلاف البصريين، فإن الأقيسة والقواعد لديهم قليلة بالنسبة لأقيسة الكوفيين وقواعدهم، ولذا

قيل: إن مذهب البصريين مذهب السماع، ومذهب الكوفيين مذهب القياس، وفي ذلك يقول الكسائي:

إنما النحـــو قيـــاس يُتبع وبـــه في كل أمـــر يُنتفـــع

(ب) قلة الشواذ عند الكوفيين وكثرتها عند البصريين، كما كثر لديهم التأويل أو الإنكار أو الحمل على الضرورة، لأنهم لما لم يقبلوا كل مسموع وأهدروا ما جاء مخالفا للقاعدة، اضطروا أن يحكموا بشذوذه إن لم يستطيعوا تأويله أو إنكاره أو حمله على الضرورة، أما الكوفيون فما أقل احتياجهم لأحد هذه الأمور، لاحترامهم المسموع.

(ج) وقوع الخلاف في فروع كثيرة بين أهل البلدين، وسأذكر لك بعدُ أمثلة منها.

وعسى أن تكون قد أدركت ما يأتي:

(١) أن كلا من البصريين والكوفيين أهل سماع وأهل قياس، غير أن البصري قد تحفظ في أقيسته وتشدد، والكوفي قد تحلل من القيود التي قيد بها البصري نفسه، واحتفى بكل مسموع وعول على القياس النظري.

(٢) أن الكوفي أكثر احتراما لنصوص اللغة من البصري وأقل حرية أمامها، أما البصري فقد كان أكثر حرية وأوسع تصرفا، حمله على ذلك الرغبة في وضع قواعد عامة للغة ونظام مطرد بقوانين محدودة مستقاة من الأساليب العربية السليمة، لأنه لو فتح الباب أمام الروايات الضعيفة أو الشاذة أو المنحولة لأدى ذلك إلى الفوضى والاضطراب.

(٣) أنه لا منافاة بين قولهم: إن البصريين أهل سماع، وقولهم: إنهم يحترمون القياس، وكذلك لا تضارب بين القول: بأن الكوفيين أهل قياس،

وقولهم: إنهم يعولون على السماع أكثر من البصريين، لأنه لما قَلَّتْ أقيسة البصريين بالنسبة للكوفيين لعدم قبولهم كل مسموع وعدم تعويلهم على القياس النظري اعتُبروا أهل سماع، ولما كانوا يحترمون القياس ويهدرون ما خالفه اعتبروا أهل قياس.

والكوفيون لما كثرت أقيستهم، إذ قاسوا على كل ما سمع وعولوا على القياس النظري، سُموا أهل قياس، ولقبولهم كل مسموع واحتجاجهم به ولو لم يعلم قائله ولم تتأكد سلامة ملكته، سُموا أهل سماع أيضا.

*** أمثلة من مسائل الخلاف:**

- اختلافهم في تسمية المصطلحات النحوية:

ذكرت لك أنه مما ترتب على اختلاف البصريين والكوفيين في مسلكهم في وضع قواعدهم اختلافهم في فروع كثيرة، ولم يقف اختلاف الفريقين عند المسائل العلمية، بل جاوزها إلى التسمية في المصطلحات:

- فبينما البصريون يقولون: النعت، ترى الكوفيين يقولون: الصفة.
- ويقول البصريون: البدل، والكوفيون يقولون: الترجمة.
- ويقول البصريون: الظرف، والكوفيون يقولون: الصفة أو المحل.
- ويقول البصري: حروف الجر، والكوفي: حروف الإضافة.
- والبصري يقول: المصروف وغير المصروف، والكوفي يسمي المصروف: المُجرى، وغير المصروف: غير المُجرى.
- والبصري يقول: واو المعية، والكوفي: واو الصرف.
- والبصري: ضمير الشأن، والكوفي: ضمير المجهول.

وغير ذلك كثير، ولا يخفى ما في الخلاف في المصطلحات العلمية من الإرهاق والتعب وتحير الباحث ومضيعة وقته بدون طائل.

هذا، وقد ألف كثير في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين أشهرهم كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري النحوي المولود سنة (٥١٣هـ) والمتوفى سنة (٥٧٧هـ) فقد ألف كتاب: الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، وذكر فيه مائة وإحدى وعشرين مسألة، وساق أدلة كل فريق وناقشها مبينا الراجح غير متعصب -كما يقول- في حكمه واختياره.

وإليك رؤوس بعض المسائل المختلف فيها، ونموذج من مسائل الخلاف من كتاب الإنصاف.

- أمثلة للمسائل المختلف فيها:

(١) الاسم مشتق من السمو عند البصريين، ومن الوسم عند الكوفيين.

(٢) الاسم الذي فيه تاء التأنيث كطلحة لا يجمع بالواو والنون عند البصريين، وقال الكوفيون يجوز جمعه.

(٣) البصريون يرون أن الخبر إذا كان جامدا محضا لا يتحمل الضمير، والكوفيون يرون أنه يتحمل الضمير.

(٤) يرى البصريون أن الاسم بعد لولا مرفوع بالابتداء، والكوفيون يقولون إنه مرفوع بها، وفريق منهم يقول إنه مرفوع بفعل مقدر.

(٥) لا يجوز عند البصريين نيابة الظرف والجار والمجرور عن الفاعل مع وجود المفعول به، ويجوز ذلك عند الكوفيين.

(٦) لا يجوز عند البصريين التعجب من الألوان والعيوب إلا بواسطة كأشد ونحوه، وعند الكوفيين يجوز التعجب من السواد والبياض بدون واسطة.

(٧) عند البصريين يجب في المعطوف على اسم إنَّ قبل ذكر الخبر النصب، وقال الكوفيون يجوز الرفع أيضاً.

(٨) يجوز عند البصريين تقدم خبر ليس عليها، ولا يجوز عند الكوفيين.

(٩) العدد المركب كخمسة عشر يعرف صدره عند البصريين، ويجوز تعريف العجز مع الصدر عند الكوفيين، تقول على رأي البصريين: تسلمت الخمسة عشر جنيها، وعلى رأي الكوفيين يجوز هذا، كما يجوز أن يقال: الخمسة العشر درهما، والخمسة العشر الدرهم.

- نموذج من مسائل الخلاف كما جاء في كتاب الإنصاف:

القول في تقديم معمول اسم الفعل عليه:

ذهب الكوفيون إلى أن «عليك، ودونك، وعندك» في الإغراء يجوز تقديم معمولاتها عليها، نحو: «زيدًا عليك وعَمْرًا عندك، وبكرًا دونك» وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز تقديم معمولاتها عليها، وإليه ذهب الفراء من الكوفيين.

أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا: الدليل على أنه يجوز تقديم معمولاتها عليها النقل والقياس، أما النقل فقد قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ والتقدير فيه: عليكم كتاب الله، أي: الزموا كتاب الله، فنصب كتاب الله بعليكم فيدل على جواز تقديمه، واحتجوا أيضاً بالأبيات المشهورة:

يا أيهـــا المائح دلـــوي دونكا إني رأيت النـــاس يحمدونكا

يـثـنـون خـيـرا ويمـجـدونـكا

والتقدير فيه: دونك دلوي، فدلوي في موضع نصب بدونك، فدل على جواز تقديمه.

وأما القياس فقالوا: أجمعنا على أن هذه الألفاظ قامت مقام الفعل، ألا ترى أنك إذا قلت: عليك زيدا، أي: الزم زيدا، وإذا قلت: عندك عمرًا، أي: تناول عمرا، وإذا قلت: دونك بكرا، أي: خذ بكرا، ولو قلت: زيدا الزم وعمرا تناول وبكرا خذ، فقدمت المفعول لكان جائزاً، فكذلك مع ما قام مقامه.

وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا: الدليل على أنه لا يجوز تقديم معمولاتها عليها أن هذه الألفاظ فرع على الفعل في العمل، لأنها إنما عملت عمله لقيامها مقامه، فينبغي أن لا تتصرف تصرفه، فوجب أن لا يجوز تقديم معمولاتها عليها وصار هذا كما نقول في الحال إذا كان العامل فيها غير فعل فإنه لا يجوز تقديمها عليه لعدم تصرفه، فكذلك ها هنا، إذ لو قلنا إنه يتصرف عملها ويجوز تقديم معمولاتها عليها لأدى ذلك إلى التسوية بين الفرع والأصل، وذلك لا يجوز، لأن الفروع أبدا تنحط عن درجات الأصول.

وأما الجواب عن كلمات الكوفيين: أما احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾ فليس لهم فيه حجة، لأن ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ ليس منصوبا بعليكم، وإنما هو منصوب لأنه مصدر، والعامل فيه فعل مقدر والتقدير فيه: كتب كتابًا اللهُ عليكم، وإنما قُدِّرَ هذا الفعل ولم يظهر لدلالة ما تقدم عليه، كما قال الشاعر:

ما إن يَمـــــسّ الأرض الا مَنكِب منه وحرفُ الساق طيَّ المحمَل

فقوله «طيَّ المحمل» منصوب لأنه مصدر والعامل فيه فعل مقدر، والتقدير فيه: «طُوي طيَّ المحمل»، وإنما قدر ولم يظهر لدليل ما تقدم عليه من قوله: «ما إن يمس الأرض إلا منكب منه»، فكذلك هاهنا: قدر هذا الفعل ولم يظهر لدلالة ما تقدم عليه من قوله: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ ﴾ فإن فيه دلالة على أن ذلك مكتوب عليهم،

فلما قدر هذا الفعل ولم يظهر بقي التقدير فيه: كتابًا الله عليكم، ثم أضيف المصدر إلى الفاعل كقوله: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ﴾ فنصب «صنع» على المصدر بفعل مقدر، وإنما قدر هذا الفعل ولم يظهر، لدلالة ما تقدم عليه من الكلام، والتقدير فيه: صَنع صُنعًا الله، وحُذِف الفعل وأضيف المصدر إلى الفاعل، لأنه يضاف إلى الفاعل كما يضاف إلى المفعول.

وقال الراعي:

دأبـــــت إلى أن ينبت الظل بعدما تقاصر حتى كاد في الآل[1] يمَصَح[2]

وجيفَ المطايا ثم قلت لصحبتي ولم ينزلوا: أبردتـــــمُ فتروحوا

فَنَصَبَ «وجيف» على المصدر بفعل مقدر على ما تقدم وأضاف المصدر إلى الفاعل، وقال لبيد:

حتى تهجـــــر في الزواج وهاجها طلبَ المعقِّب حقّـــــه المظلومُ

كأنه قال: طلبًا المعقبُ حقَّه، ثم أضاف المصدر إلى المعقِّب، وهو فاعل بدليل أنه قال «المظلوم» بالرفع، حملا للوصف على الموضع، وإضافة المصدر إلى الفاعل أكثر من أن تحصى، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ ﴾ فأضاف المصدر إلى اسم الله تعالى، وهو الفاعل، ونحوه قولهم: «ضربي زيدا قائما»، و«أكثر شربي السويق ملتونا».

وقال الشاعر:

فلا تكثرا لومي فـــــإن أخاكما بذكراه ليـــــلى العامرية مولع

فأضاف المصدر إلى الضمير في «ذكراه» وهو فاعل

---

(١) الآل: السراب وهو ما يرى نصف النهار كأنه ماء.

(٢) يذهب.

وقال الآخر:

أفنى تلادي وما جمَّعت من نشب قرعُ القواقيز أفـــــواهَ الأباريق

فأضاف المصدر إلى «القواقيز» وهو فاعل فيمن روى «أفواهَ» منصوبا، ومن روى «أفواهُ» بالرفع، جعله مضافا إلى المفعول، والشواهد على هذا النحو كثيرة جداً.

وأما البيت الذي أنشدوه:

يا أيها المائح دلوي دونكا

فلا حجة لهم فيه من وجهين: أحدهما أن قوله: «دلوي» ليس هو في موضع نصب، وإنما هو في موضع رفع، لأنه خبر مبتدأ مقدر، والتقدير فيه: هذا دلوي دونكا، والثاني: أنا نسلم أنه في موضع نصب، ولكنه لا يكون منصوبا بدونك، وإنما هو منصوب بتقدير فعل، كأنه قال: خذ دلوي دونك، و«دونك» مفسر لذلك الفعل المقدر.

وأما قولهم: إنها قامت مقام الفعل فيجوز تقديم معمولها عليها كالفعل، قلنا: هذا فاسد، وذلك لأن الفعل الذي قامت هذه الألفاظ مقامه يستحق في الأصل أن يعمل النصب، وهو متصرف في نفسه فتصرف عمله، وأما هذه الألفاظ فلا تستحق في الأصل أن تعمل النصب، وإنما أعملت لقيامها مقام الفعل وهي غير متصرفة في نفسها فينبغي أن لا يتصرف عملها، فوجب أن لا يجوز تقديم معمولها عليها.

مشاهير العلماء المتأخرين

(١) ابن جني: هو أبو الفتح عثمان بن جِني (معرب كِني) وأبوه كان مملوكا روميا لسليمان بن فهد الأزدي، ولد بالموصل وتلقى عن علمائها وتصدر للدراسة يافعا، فمر عليه الفارسي وسأله والناس حوله فلم يحر جوابا، فقال له: «تزببت وأنت حصرم»، فلازمه وتتلمذ عليه ثم خلفه بعد وفاته في بغداد، ونبغ في علوم العربية حتى ملأ اسمه الأسماع، وله مؤلفات كثيرة منها: الخصائص، وسر الصناعة، والمحتسب، واللمع، توفي ببغداد سنة (٣٩٢هـ).

(٢) الزمخشري: هو أبو القاسم محمود بن عمر جار الله ولد بزمخشر (بلد بخوارزم)، تلقى على النيسابوري وغيره حتى تفوق على من تقدمه وصار الإمام في كثير من الفنون، وكان معتزلي العقيدة، وله مؤلفات كثيرة منها في النحو: النموذج، والأمالي، والمفرد والمؤلف، والمفصل الذي عني العلماء بشرحه والتعليق عليه، من أشهر شروحه شرح ابن يعيش، جاور حرم مكة مدة ثم رجع إلى وطنه فتوفي سنة (٥٣٨هـ).

(٣) الأنباري: هو أبو البركات عبد الرحمن كمال الدين بن محمد الأنباري، ولد بالأنبار وتلقى عن أبيه، ثم نزح إلى بغداد فأخذ عن الجواليقي، ولازم ابن الشجري حتى تبحر في علوم العربية، وألف فيها كثيرا من المؤلفات منها: أسرار العربية، والإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء، وهو غير ابن الأنباري كوفي النزعة الذي تقدمت الإشارة إليه، توفي ببغداد سنة (٥٧٧هـ).

(٤) العكبري: هو أبو البقاء عبد الله الضرير بن الحسين، أصله من عكبرا (بلدة على دجلة) ولد ببغداد، وتلقى النحو على ابن الخشاب وغيره، وله مصنفات كثيرة، منها في النحو: شرح الإيضاح لأبي علي، وشرح اللمع لابن جني، وشرح المفصل للزمخشري، والتبيين في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، وقد شرح ديوان المتنبي وهو شرح عظيم الفائدة، توفي ببغداد سنة (٦١٦هـ).

(٥) ابن معط: أبو الحسين يحيى زين الدين بن معط الزواوي، ولد بالمغرب من قبيلة زواوة، سمع من الجزولي وابن عساكر، ثم رحل إلى دمشق واستوطنها، ثم إلى مصر في عهد الملك الكامل الأيوبي، وتصدر لدراسة النحو والأدب بالجامع العتيق، من مؤلفاته في النحو الألفية التي أشار إليها ابن مالك في أول ألفيته، توفي بالقاهرة ودفن بالقرب من الإمام الشافعي سنة (٦٢٨هـ).

(٦) ابن يعيش: هو أبو البقاء يعيش موفق الدين بن علي بن يعيش، نشأ بحلب تلقى النحو عن فتيان الحلبي وغيره، ثم ارتحل إلى بغداد فالموصل ثم إلى دمشق، فالتقى بالشيخ تاج الدين الكندي فكتب بخطه شهادة بالثناء عليه، ثم رجع ابن يعيش إلى بلدته حلب وأقام بها للإفادة، فانتفع الناس به وتتلمذ عليه رؤساؤها، وله شرح على المفصل للزمخشري، توفي ببلدته سنة (٦٤٣هـ).

(٧) ابن الحاجب: هو أبو عمرو عثمان جمال الدين بن عمر الكردي الأصل الشهير بابن الحاجب، لأن أباه كان حاجبا للأمير عز الدين موسك الصلاحي بالقاهرة، ولد بإسنا، ثم تعهده أبوه بالقاهرة فحفظ القرآن صغيرا وتلقى العلوم عن الشاطبي وغيره، وتبحر في العربية شابا، ثم انتقل إلى دمشق،

فانتفع الناس به في مختلف الفنون وبخاصة النحو، ثم عاد إلى القاهرة وتصدر للدراسة بالمدرسة الفاضلية ثم انتقل إلى الإسكندرية، وكان من أصفى الناس ذهنا وأقدرهم بيانا مع الإيجاز، من مؤلفاته في النحو: الإيضاح شرح المفصل، والأمالي، والكافية، وشرحها، ولقد تسابق علماء النحو إلى شرحها، وممن شرحها الرضي والجامي، وله في الصرف الشافية، توفي بالإسكندرية سنة (٦٤٦هـ).

(٨) ابن مضاء: هو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن اللخمي القرطبي، نشأ بقرطبة في بيت محب للعلم فسلك مسلك أسلافه حتى تبحر في العلوم العربية وغيرها، وتولى رئاسة القضاء في عهد أمير المؤمنين يوسف ابن عبد المؤمن من دولة الموحدين، له في النحو: كتاب المشرق في النحو، وكتاب الرد على النحاة، اعترض فيه على علماء النحو في المشرق في اعتبار العامل وفي توجيه العلل وفي اعتبار القياس، توفي بأشبيلية سنة (٥٩٢هـ).

(٩) ابن خروف: هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحضرمي الأشبيلي، ولد بأشبيلية وأخذ عن ابن طاهر وبرز في العربية، من مؤلفاته: شرح كتاب سيبويه أهداه إلى صاحب المغرب فمنحه ألف دينار، وشرح الجمل للزجاجي، وتنزيه أئمة النحو مما نسب إليهم من الخطأ والسهو، رد فيه على ابن مضاء في تخطئته لنحاة المشرق، توفي بأشبيلية سنة (٦١٠هـ).

(١٠) الرضي: هو محمد بن الحسن نجم الملة والدين الأستراباذي، هجر بلاد المشرق وأقام بالمدينة المنورة، وألف شرحه على الكافية لابن الحاجب في النحو، وكذا شرح الشافية لابن الحاجب في الصرف، ولم يدع الشرحان شيئا من الفن إلا أوفياه حقه، وتراه في معظم القواعد بصري الاتجاه، وتارة

يصوب رأي الكوفيين، وأحيانا يكون له رأي خاص يخالف فيه اتجاه النحاة، ولا يبغي عن هذين الشرحين باحث في العربية، توفي (سنة ٦٨٦هـ).

(١١) ابن عصفور: هو أبو الحسن علي بن مؤمن الأشبيلي، أخذ عن الدباج والشلوبيني، وكان من أصبر الناس على المطالعة، له مؤلفات منها: المقرب، وشرحه، ومختصر المحتسب لابن جني، توفي رحمه الله سنة (٦٦٣هـ).

(١٢) ابن مالك: هو أبو عبد الله محمد جمال الدين بن عبد الله الطائي ولد بجَيَّان (بلد بالأندلس) سنة (٦٠٠هـ) وسمع من الشلوبيني قليلا، ثم ورد المشرق حاجا وقدم القاهرة ثم رحل إلى الشام واستوطنها، فسمع من ابن يعيش وتلميذه ابن عمرون، ثم تصدر لدراسة العربية في حلب ودمشق، فأتى بما أعجز الأوائل لقوة حافظته، له مؤلفات في النحو نظما ونثرا تشهد له بالتفوق، فمن النظم: الكافية الشافية، والألفية -وهي ملخص الكافية لشهرتها ترجمت إلى لغات، من شروحها: شرح ابن عقيل، وشرح الأشموني- ولامية الأفعال، والنظم الأوجز فيما يهمز، ومن النثر: الفوائد النحوية والمقاصد المحوية، وتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، وإعراب مشكل البخاري، وطلاب العربية مدينون لهذا الإمام بالفضل، فقد أسدى إليهم أيادي لا تحصى، وانتفع العلماء في المشرق والمغرب بمؤلفاته، توفي رحمه الله بدمشق سنة (٦٧٢هـ).

(١٣) ابن آجروم: هو أبو عبد الله محمد بن محمد الصنهاجي، نسبة إلى صنهاجة قبيلة في المغرب، وآجروم معناه بلغة البربر الفقير الصوفي، ولد بفاس، وذاع فضله في علوم كثيرة إلا أنه غلبت عليه القراءات والنحو، من مؤلفاته في النحو مقدمته المشهورة، توفي بفاس سنة (٧٢٣هـ).

(١٤) أبو حيان: محمد أثير الدين بن يوسف الغرناطي، ولد بمطخارش

من ضواحي غرناطة تلقى عن كثيرين منهم ابن الضائع، وضرب في مشارق الأرض ومغاربها حتى انتهى به المطاف إلى القاهرة، فأخذ عن ابن النحاس، وتصدر الدراسة في الجامع الأقمر وصنف كثيرا، ومن مؤلفاته في النحو: التذييل والتكميل في شرح التسهيل، وملخصه: ارتشاف الضرب من لسان العرب، توفي بالقاهرة سنة (٧٤٥هـ).

(١٥) الشاطبي: هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، تلقى العربية وغيرها عن أئمة المغاربة، نبغ في فنون منوعة وصنف فيها مؤلفات، من مؤلفاته النحوية شرحه على الألفية، توفي بالأندلس سنة (٧٩٠هـ).

(١٦) ابن الناظم: هو محمد بدر الدين بن محمد جمال الدين ابن مالك، ولد بدمشق الشام فأخذ عن أبيه ثم رحل إلى بعلبك فأقام بها وأنتفع الناس بعلمه، ومن مؤلفاته النحوية شرحه على ألفية والده، ولما توفي أبوه استُدْعِيَ إلى دمشق فولي وظيفة أبيه ومات بها سنة (٦٨٦هـ).

(١٧) ابن هشام: هو أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصاري، ولد بالقاهرة سنة (٧٠٨ هـ) وتتلمذ على عبد اللطيف بن المرحل، وسمع على أبي حيان ديوان زهير، وحضر دروس التاج التبريزي، وقد نبغ وبرز في النحو حتى فاق شيوخه، وتخرج على يده كثير من العلماء، وإن مؤلفاته لتشهد بعلو كعبه واتساع أفقه وقوة ملكته، ولقد ذاع صيتها وطارت شهرتها حتى كثر تداولها وعم نفعها، فمنها: شذور الذهب في معرفة كلام العرب، وشرحه، وقطر الندى، وشرحه، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، وشرح التسهيل لابن مالك، والجامع الكبير، والجامع الصغير، والإعراب عن قواعد الإعراب،

ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب، وقد تبارى العلماء في شرحه والتعليق عليه فشرحه ابن الصائغ إلى الباء الموحدة، وشرحه الدماميني، وتعقبه الشمني في حاشيته المسماة: المنصف من الكلام على مغني ابن هشام، وللدسوقي حاشية على المغني، وكذا للأمير، وللسيوطي حاشية وصل فيها إلى حتى، وللأبياري حاشية سماها: القصر المبني على حواشي المغني، وصل فيها إلى أول الباب الثاني، توفي ابن هشام بالقاهرة ودفن خارج باب النصر سنة (٧٦١هـ).

(١٨) ابن عقيل: هو أبو عبد الرحمن عبد الله بهاء الدين بن عبد الرحمن الحلبي أصلا، نشأ بالقاهرة وتلقى عن الجلال القزويني وأبي حيان وغيرهما، وتصدر للدراسة بالخشبية والقطبية والجامع الطولوني والجامع الناصري، ومن مؤلفاته النحوية: شرحه على التسهيل المسمى: المساعد على تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، وشرحه على الألفية، وقد اهتم العلماء بهذا الشرح وكتبوا عليه الحواشي، منها حاشية: إرشاد النبيل إلى ألفية ابن مالك وشرحها لابن عقيل لابن الميت، وحاشية للسجاعي، وحاشية للخضري، وحاشية للأجهوري، توفي ابن عقيل ودفن بالقرب من الإمام الشافعي سنة (٧٦٩هـ).

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

ترجمة المؤلف ٥

مقدمة المؤلف ٩

الباعث على وضع النحو..... ١٠

اللحن في الإعراب وأواخر الكلمات وأمثلة ذلك ١٠

اللحن في الصيغ والأبنية ١٢

هل كان اللحن معروفا في صدر الإسلام؟ ١٣

متى وضع النحو؟..... ١٣

أين وضع النحو؟ ١٤

واضع النحو ١٥

أول ما وضع من أبواب النحو ١٧

كيف نشأ النحو؟ مراحله وأطواره ١٨

الأدوار التي مر بها ١٩

الدور الأول: دور التكوين ٢٠

طبقتاه من البصريين ٢٠

الطبقة الأولى وأثرها..... ٢٠

أعلام الطبقة الثانية ٢١
أثر الطبقة ومنهجها ٢٢
الدور الثاني: دور النمو ٢٣
اشتراك البصريين والكوفيين ٢٣
أثر هذا الدور ومنهجه في البحث ٢٣
الطبقة الثالثة في البصرة ٢٥
الأخفش الأكبر ٢٥
الخليل بن أحمد ٢٥
يونس بن حبيب الضبي ٢٥
الطبقة الأولى في الكوفة ٢٦
أبو جعفر الرؤاسي ٢٦
معاذ الهراء ٢٦
الطبقة الرابعة البصرية ٢٦
سيبويه ٢٦
اليزيدي ٢٧
مناظرة اليزيدي مع الكسائي ٢٨
أبو زيد سعيد بن أوس ٢٨
الأصمعي ٢٨
الطبقة الثانية في الكوفة ٢٩
الكسائي ٢٩

مناظرة الكسائي مع الأصمعي..... ٢٩
الطبقة الخامسة في البصرة..... **٣٠**
الأخفش الأوسط ٣٠
المسائل التي وافق فيها الكوفيين ٣١
قطرب ٣٢
الطبقة الثالثة في الكوفة **٣٢**
أبو الحسن الأحمر ٣٢
الفراء ٣٣
اللحياني..... ٣٤
الدور الثالث: دور النضج والكمال **٣٥**
أثر هذا الدور ٣٥
التقاء علماء هذا الدور في بغداد ٣٥
أشهر علماء هذا الدور ٣٦
الطبقة السادسة في البصرة **٣٦**
الجرمي ٣٦
التوزي ٣٦
المازني..... ٣٦
أبو حاتم السجستاني ٣٧
الرياشي ٣٧
الطبقة الرابعة في الكوفة **٣٧**

ابن سعدان ٣٧
الطوال ٣٨
ابن السِّكيت ٣٨
الطبقة السابعة في البصرة ٣٨
المبرد ٣٨
أمثلة مخالفته للبصريين والكوفيين ٣٨
الطبقة الخامسة في الكوفة ٣٩
ثعلب، مجلسه مع الرياشي ٣٩
دور الترجيح -المذهب البغدادي- ٤١
من غلبت عليه النزعة البصرية في البغداديين ٤١
الزجاج ٤١
ابن السراج ٤٢
الزجاجي ٤٢
ابن درستويه ٤٢
السيرافي ٤٢
الفارسي ٤٣
من غلبت عليه النزعة الكوفية ٤٣
ابن الأنباري ٤٣
ابن خالويه ٤٣
من جمع بين النزعتين من البغداديين ٤٣

ابن قتيبة ٤٣
ابن كيسان ٤٣
الأخفش الصغير ٤٤
المذهب البغدادي، قواعده ٤٤
ما انفرد به المذهب البغدادي ٤٤
الخلاف بين البصريين والكوفيين **٤٥**
اتجاه البصريين ومسلكهم ٤٥
موقفهم من بعض القراءات ٤٨
مسلك الكوفيين واتجاههم ٤٩
موقفهم من القراءات ٥٠
موقف الفريقين من الأحاديث النبوية ٥٠
منشأ الخلاف بين الفريقين ٥٢
البيئة في الكوفة ٥٣
أثر الخلاف ونتائجه ٥٣
أمثلة من مسائل الخلاف ٥٥
نموذج من مسائل الخلاف من كتاب الإنصاف: القول في تقديم
معمول اسم الفعل ٥٧
مشاهير العلماء المتأخرين ٦١
ابن جني ٦١
الزمخشري ٦١

الأنباري ٦١
العكبري ٦٢
ابن معط ٦٢
ابن يعيش ٦٢
ابن الحاجب ٦٢
ابن مضاء ٦٣
ابن خروف ٦٣
الرضي ٦٣
ابن عصفور ٦٤
ابن مالك ٦٤
ابن آجروم ٦٤
أبو حيان ٦٤
الشاطبي ٦٥
ابن الناظم ٦٥
ابن هشام ٦٥
ابن عقيل ٦٦